
هيرمَان هسّة
Telegram:@mbooks90
أنت.. جَواب السؤال
رسائل مختارة إلى الشباب
ترجمة وتقديم: أحمد الزناتي

الإهداء

إلى ابنيَّ الصبيَّين اليافعَين

لِتُفكِّرا فيَّ غدًا في أثناء المعركة



مقدمة المترجم

هذا الكتاب هو ترجمة رسائل مُختارة من كتاب «أنت جواب السؤال.. رسائل إلى الشباب»، الصادر عن دار نشر «Insel» الألمانية للمرة الأولى سنة ٢٠٠٠، بمقدمة المحرِّر الأدبي الكبير فولكِر ميشلز، الذي نذر حياته كلها تقريبًا للتنقيب في تراث الشاعر والروائي الألماني الأشهر، الحائز على جائزة نوبل، هيرمان هسّه (١٨٧٧-١٩٦٢) على مدار قرابة خمسة عقود، وعلى الأخصّ في تركة الرسائل الضخمة مع كِبار أدباء عصره، كمراسلاته مع أديب نوبل، توماس مان، ومعاصره شتيفان تسفايج، والناشر الكبير بيتر زوركامب، والأديب رومان رولان، وغيرهم. في السطور الأولى من الكتاب يقول ميشلز إن إجمالي ما تيسر جمعه من مراسلات هيرمان هسّه بلغ حتى اليوم خمسة وثلاثين ألف رسالة، حُفِظَ قسمٌ منها في أرشيف المكتبة المحلية لمدينة بيرن السويسرية، والقسم الآخَر محفوظ في أرشيف السجلات الأدبية في مدينة مارباخ الألمانية، وهي متاحة للباحثين.

بدأت قصة الكتاب في سنة ١٩٧٠، حينما شرع هاينر هيرمان هسّه، نجل الكاتب الراحل، بالتعاون مع مُحرِّر الكتاب فولكِر ميشلز وزوجته في البحث والتنقيب في ما تركه هسّه من رسائل إلى قُرَّاء وأصدقاء (من بينهم أصدقاء أبنائه)، وتعليقات على مخطوطات أعمال أدبية مُرسَلة إليه، وتركها لدى زوجته نينون قبل رحيله في ٩ أغسطس سنة ١٩٦٢. استطاع المحرِّر وزوجته استخلاص خمسة عشر ألف رسالة، هي إجابات وتعليقات هسّه على الخطابات المُرسَلة إليه، وقد نُشرت في أربعة مجلدات ضخمة في الفترة

من سنة ١٩٧٣ حتى سنة ١٩٨٤ تحت عنوان «هيرمان هسّه.. الرسائل الكاملة»، نشرَ منها المحرِّر في هذا الكتاب نحو عشرة في المئة فقط، منتقيًا رسائل هسّه إلى الشباب كما يُشير العنوان.

في البداية، تجدر الإشارة إلى أن هيرمان هسّه قد حشد تركيزه في نهاية عشرينيات القرن السابق وبعد ذيوع صيته وتحسّن أحواله المادية والمعيشية على محورين أساسيَّين: الأول هو كتابة مراجعات لأعمال أدبية وفكرية غير معروفة للقارئ الأوروبي بهدف حثّه على تغيير ذائقته الأدبية، وتعريفه بأعمال قد لا يعلم بوجودها من الأساس (أصدر هسّه سِفره الضخم «العالم في كتاب» في ما يزيد على ٣٥٠٠ صفحة عن دار نشر «زوركامب»)، اشتمل على مختارات أدبية هي خلاصة قراءاته ومراجعاته). أما المحور الثاني فكان اهتمامه بتواصله مع الكُتّاب الشباب، وخصوصًا المغمورين الذين آمن بموهبتهم الأدبية، وتقديمهم إلى جمهور القُرّاء، من بينهم على سبيل المثال لا الحصر الكاتب النمساوي روبرت موزيل، والألماني فالتر بنيامين، وإلياس كانيتي، وآرنو شميدت، والأمريكي جيروم ديفيد سالنجر، وماجدا سابو، وغيرهم، بغرض تقديمهم إلى جمهور القُرّاء.

في الكتاب الذي بين أيدينا (أنت جواب السؤال.. رسائل إلى الشباب) يلتفت هسّه إلى الشباب التفاتًا خاصًّا، فيقدِّم خلاصة تجاربه الأدبية، وتأملاته في الحياة والفنّ. ويشير المحرِّر إلى تفاعل هسّه النشِط في إجاباته عن رسائل قُرّائه من الشباب تحديدًا (الفئة العمرية من ١٥ سنة حتى ٣٥ سنة وفقًا لكلام ميشلز)، لكنه رغم ذلك تفاعل اتسم بالاقتصاد والإيجاز

لعوامل عدّة، على رأسها ضعف بصره المزمن، ورغبته في الإجابة عن أكبر عدد ممكن من الرسائل. وقد وقع اختيار المحرر على مجموعة متباينة الأطياف من الرسائل، أعطت فكرة شاملة عن رؤية هسّه لموضوعات مثل: الله والإيمان، اليأس، مغزى الحياة، مشكلات الشباب والمراهقة، السياسة، فضلًا عن تعليقاته على رسائل بعض القرّاء على رواياته، وعلى الأخصّ روايته الأشهر «لعبة الكريات الزجاجية».

اللافت في الرسائل أنّ هسّه لم يسعَ في أيٍّ منها إلى طرح إجابة قاطعة محدّدة عن أي سؤال، فهو من ناحية كان يسعى إلى أن يحثّ السائل على مواصلة السعي والبحث داخل نفسه أولًا ليعثر على ضالّته، ومن ناحية ثانية كان يهتمّ بالقالب الأدبي الذي صِيغَتْ عَبْرَهُ الرسالة، فكان يحرص أشدّ الحرص على اختيار ردٍّ متشكّك يحمل من الشكّ أضعاف ما يحمل من اليقين، رافضًا نبرة الوعظ والإرشاد أو امتلاك الحقيقة المطلقة، حتى في آخر رسائله التي تشكّى فيها من استقبال أعماله الفاتر لدى جمهور القُرّاء في ألمانيا في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

كان هسّه يُشيد دائمًا بقيمة العمل وبقيمة بذل العرق والجهد، فيقول في إحدى الرسائل: «كانت القيمة الوحيدة لحياتي محصورة في الساعات التي أقضيها منكبًّا على إنتاج عمل إبداعي، إنها الساعات التي أُفرّغ فيها قلّة حيلتي واليأس الذي يجتاحني من الدنيا».

كان هسّه كاتب رسائل من الطراز الأول رغم اعتلال صحته الدائم ورغم

بصره الحسير، إذ لم يتجاهل يومًا رسالة، مهما كان سنّ مُرسِلها (كما سنقرأ في الرسائل المترجمة). يقول هسّه عن هذه النقطة: «كنت كلما ذهبت صباح كل يوم إلى مكتبي للعمل ورأيت جبل الرسائل المكدّسة فوق مكتبي، جلستُ وقرأتُ حتى ينتهي اليوم، وحتى تخبو شعلة بصري تمامًا مع هبوط الظلام، تستولي على عقلي فكرة أن هذه الرسائل هي «الصدى الحقيقي» لأعمالي».

الغريب أن هسّه كان يرى، رغم ما يبذله من جهدٍ يفوق احتمال البشر لقراءة الرسائل والردّ عليها، تقصيرًا شائنًا من جانبه، لأنه لم يستطع أكثر من الردّ برسالة، لم يستطع أن يغادر منزله ليزور صاحب المسألة أو صاحبتها، ليقدّم له عونًا حقيقيًا، ويتحدّث إليه وجهًا لوجه. كان مُحبَطًا لأن الظروف لم تساعده ليكون أكثر من مجرّد كتابة رسالة، قطعة ورق لا تُسمِن ولا تُغنِي، بحسب اعتقاده.

بعد الاطلاع الفاحص على رسائل الكتّاب، وقع اختيار المترجم -بالاتفاق مع الدار وورثة السيد هيرمان هسّه- على مجموعة مُختارة بعينها من الرسائل غطّت أغلب المسائل التي كانت تؤرّق بال الشباب في ذلك الوقت، كما غطت الأطوار الزمنية المختلفة من سنة ١٩٠٤ وحتى وفاة هسّه في التاسع من أغسطس سنة ١٩٦٢، إذ لم أرَ فائدةً تُرجَى من ترجمة رسائل الكتّاب كاملةً، بسبب تكرار الموضوعات محلّ الاستفسار، وتكرار أسئلة بعينها حول موضوعات بعينها (وقد أوردها المحرِر السيد فولكر ميشلز من باب الأمانة العلمية والتوثيق التاريخي)، علاوةً على اقتصار بعض الرسائل على سطرٍ أو

سطرَين، فارتأيتُ مجتهدًا نقل رسائل مُختارة ذات طابع بانورامي، من شأنها الكشف عن أطياف متباينة الألوان من الأفكار والمواقف والرؤى إلى القارئ العربي. ذلك أنّ غرضي من الترجمة لم يكن مجرد تسويد أوراق، ولا زيادة عدد صفحات، بقدر ما كانت رغبة في أن أنقل قبسًا من خلاصة تجارب الأديب الكبير ورؤيته للأدب والفن والحياة، متأسيًا بكلمة هسّه نفسه: «ينبغي للإنسان أن ينتقي من المختارات مختارات أخرى تخصه».

أما على الصعيد الشخصي، فقد أفدت من هذه الرسائل إفادة جمة، ولا سيما في ما يتّصل بإعادة تأمُّلي لعَلاقة الأب بأبنائه، وسعي هيرمان هسّه الدائم لئلا يفرض على أبنائه الثلاثة (برونو وهاينر ومارتن) طريقًا بعينها في الحياة، ولا أن يلزمهم سلوكًا اجتماعيًّا محدّدًا، ولا أن يصدهم عن سبيل اعتناق مذهب سياسيّ ليُرغّب إليهم مذهبًا آخر. كان مبلغ هم الأديب الكبير مد جسور التواصل بينه وبين أولاده، وتحقيق الفهم المتبادل، إذ يقول في رسالة إلى ابنه البِكر برونو: «سيكتب لأعمالي الأدبية النجاح لو كنتَ واحدًا من قرّائها المحبّين المتعاطفين، ولو احتفظتَ بشيءٍ منها لديك دائمًا».

كانت غاية هيرمان هسّه كأب وكاتب أن يبدأ مع أولاده بداية جديدة، ولا سيما بعد الاضطرابات الأسرية الفاجعة التي ضربت العائلة، وقوضت أركانها، محاولًا أن يظهر أمامهم بمظهر الصديق الأكبر سنًّا، الذي يملك خبرة حياتية أثرى بحكم السنّ، طارحًا وراء ظهره وجه الأديب العارف،

مكررًا العبارة نفسها على الدوام: «أحكَم الناسِ عندي مَن لا يسعى وراء الانتصار لوجهة نظره، ومَن ينشد طريق الحكمة ليستروِح نسيمَها العطر».

تبقى كلمة أخيرة أودّ الإشارة إليها: استرعت انتباهي في رسالة هيرمان هسّه قبل الأخيرة، وهي رسالة كان قد كتبها ردًّا على طالبة أمريكية، أقول استرعت انتباهي عبارة حملَتْ رُوحًا عرفانية مرهفة، وكأنها رسالة قصيرة لوداع طويل. تقترب العبارة كثيرًا من فكرةٍ أوردها الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في كتابه «العبادلة»، الذي وضعه في أواخر أيامه ولمّح فيه إلى فكرة «البُدلاء»، إذ يقول الشيخ الأكبر: «ونور الشمس على صفة واحدة، فيضرب الزجاج المتلوّن، فينعكس، فيظهر فيه من الألوان ما عليه الزجاج في رأي العين. الزجاج القلوب، والألوان الاعتقادات، والحق لا يتغير، ولكن هكذا تراه».

ويقول هيرمان هسّه في رسالته: «... فأنا في الرابعة والثمانين، وأتهيأ للانسحاب من هذه الحياة، وعاجلًا أم آجلًا سيحلّ محلّي إنسان آخَر. فالحقّ لا يتغير، والحقيقة لا تتغيّر، مهما أطلتْ علينا بوجوه شديدة التباين».

وعن عنوان الكتاب يقول هيرمان هسّه: «أنتَ جواب السؤال. تضع الحياةُ أمام كل واحد منا مهمّة خاصّة خُلقت من أجله، وليس هناك ما يُسمى بقصورٍ شخصيّ مُقدَّر، ولا انعدام كفاءة كتبته علينا الأقدار، ففي استطاعة أضعف الناس وأشدّهم فقرًا أن يحيا حياة ثرية حقيقية، بشرط أن يدرك مهمته في الحياة، وأن يسعى لإنجازها».

في النهاية، أؤمل من وراء هذه الترجمة أن أكون قد قدمتُ شذرات تنير للقُرّاء طريقهم، كما أنارَتْ طريقًا ما زلتُ أسير فيها.

أحمد الزناتي

مصر الجديدة في ٩ أكتوبر ٢٠١٩

إلى ابن عمّه باول جوندرت (كالف، السبت ١١ يونيو ١٩٠٤)

وصلني خطابك الرقيق في أثناء فترة استراحة قصيرة تفصل بين عملَين(١)، لذا أرى أنه من الأفضل الردّ الآن على خطابك بدلًا من أن يمتدّ الأمر شهورًا لو أرجأتُ الردَّ.

أثار خطابُك اهتمامي، وأشاع في قلبي السرور، كما ضاعفت من سعادتي إشارتُك إلى أن تأمّلاتي المكتوبة حول الطبيعة والاستمتاع بها قد أسهم في شحذ بصرك، وتهيئتك للاستمتاع بما يحيط بك، أما أنا فقد أفسدَتْ عليَّ طبيعتي الفظّة القاسية الاستمتاع بمناظر الطبيعة الفاتنة الهادئة، أكثر مما أفادتني.

يتعذر على الإنسان النشيط المُنتج أن يجد سبيلًا للخروج من كَدَر هموم الحياة اليومية وتعكّر المزاج، إلا أن ينزوي عن الناس أو أن يصير فظًّا كما تراني في أغلب الأحوال.

من الصعب إخبارك كيف انغمست بكل جوارحي في عالم الأدب والفنّ، فلقد نضجتُ قبل الأوان، وواظبتُ على القراءة الشخصية الجادّة في سنّ مبكرة للغاية. يُضاف إلى ذلك أنني انصرفتُ عن كل ما يخالف فطرتي وطبعي، حاشدًا تركيزي على سبر أغوار الروح وفهم الحضارة الإنسانية بحسب ما تيسّر لي من وسائل آنذاك، كما محوتُ عن ذهني فكرة الاقتراب من أيّ مجالات فنّية أرتادها كمجرّد عابثٍ أو هاوٍ (رغم ندمي على ذلك)، كالموسيقى وفنّ المسرح والسياسة، إلخ. لدرجة أنني أحجمتُ كليًّا عن

مطالعة الأعمال الفلسفية في السنوات الأخيرة، وانقطعتُ إلى دراسة المجالات التي وجدتها أرسخ وأكثر أُلفة إلى نفسي.(1)

كانت طريقتي أن آخذ من كل فنّ طرفًا، ومن كل أدب شيئًا، عبر قراءة أمّهات الكتب (على سبيل المثال أعمال القديس فرنسيس الأسيزي، ولورينزو ميديتشي، وجيرلاندايو، والرومانسيين الألمان، وجوته، إلخ)، فأطلتُ النظر في دراسة أعمالهم، حتى صرت أقرؤها كأعمالٍ نابضة بالحياة، قريبة من نفسي، ثمّ ما لبث كل شيء أن اتخذ شكلًا منظمًا ومريحًا.

رغم ذلك لم أقترب من قراءة علوم اللاهوت؛ طالما كانت طبيعة اللاهوت، شأنها شأن الفلسفة وهي تنظر في المسائل النفسية وتقلّبها على وجوهها، تُرهِق أعصابي وتثير حنقي. أستثني من ذلك كتاب شلايرماخر «محاضرات في الدين»(2)، وهو العمل الوحيد الذي ترك أعمق الأثر في نفسي. كنتُ أفضّل قراءة الحكايات التاريخية التي تتناول تاريخ الكنيسة والأديان. وكنتُ أُقبِل بنهمٍ على التهام كل ما يقع تحت يدي من كتب الحكايات الشعبية وسِيَر القديسين، فكانت كتب ساباتيير عن القديس فرنسيس الأسيزي(3) وغيره الأقرب إلى نفسي، والأعلى قيمةً والأبلغ أثرًا.

لا تنزعج إن كنتَ لم تقرأ إلا نزرًا يسيرًا من أعمال الكُتّاب الكلاسيكيين، فأنا لم أقرأ إلا نصف أعمال شيللر، ونحو سُدُس أعمال ليسّنج، والأرجح أنني لن أزِيد على هذا القَدْر. ولا أنصحك في الوقت الحالي بقراءة أعمال

دانتي أللجيري، وعليك أن تدّخر جهدك حتى نتوفر تحت يديك مصادر موثوق بها حول إيطاليا والعصور الوسطى المتأخرة، وإلا ستصير قراءة دانتي مهمّة شاقة مريرة، ستفسد عليك الاستمتاع بقراءة عمل أدبيّ رفيع، بينما يمكنك الاستمتاع بمطالعة أعمال شكسبير بسلاسة ويُسر، دون التعمّق في قراءة التاريخ.

أما في ما يخصّ الشاعر جوتفريد كِلر، فهو شاعر لا يُبارى، وأضعه في مقام رفيع لا يدانيه فيه شاعر آخَر، وأتمنى لك وقتًا ممتعًا وأنت تقرؤه.

أقول لك بالجملة: ليس مهمًّا أن تكون قد قرأت كثيرًا وحصَّلتَ أكثر، بقدرِ ما هو مهمّ أن يضفي عليك ما قرأته (في حياتك، وكلامك، ومدى استمتاعك بالحياة وبالقراءة نفسها) بهجة وثراءً رُوحيًّا، فقد يقرأ أحدنا ليسّنج طَوال اليوم، في حين يضرب بها الآخَر عُرض الحائط، وكلانا على حق.

أطيب التحيات.. هيرمان

إلى ابن عمّه باول جوندرت (جاينهوفن، ١٦ أكتوبر ١٩٠٤)

عزيزي باول..

جزيل الشكر على خطابك الرقيق الذي أثار اهتمامي وسعادتي. لقد صدق حدسك للأسف، فأنا مشغول تمامًا، وأشعر أنني سأغرق إلى الأبد في بحر الرسائل التي أتلقاها، لا سيّما أنّ زوجتي مريضة منذ أسابيع طويلة.(4)

أتفهم انزعاجك من فصل الصيف الملتهب في برلين حاليًّا. أما بالنسبة إلى شخصٍ مثلي من أبناء الريف في الريف، فالصيف الساخن متعة لا تُدانيها متعة أخرى.

أسعدني ما سمعته عن استمتاعك بقراءة أعمال جوتفريد كيلر، فهذا أفضل ما يُمكن أن يقرأه الإنسان، وقلّما ستصادف من بين الشعراء المحدَثين شاعرًا يملك هذه الدرجة من العذوبة والثراء. ثمّة شاعر آخَر أضعه في مصافّ الكِبار، شأنه شأن جوتفريد كيلر، وهو موريكه. إن كنت لم تسمع عنه من قبل فأنصحك بأن تبدأ بقراءة مجموعته القصصية «حكايات». «تيودور شتورم» نفسه على تقديري إياه لم يبلغ قَط هذه الدرجة الرفيعة عندي.

يؤسفني بالطبع ما لمحتَ إليه بشأن سوء حالتك النفسية، وأتفهم الأمر تمامًا. على كل الأحوال ينبغي لكل إنسان تجاوز الفترات الصعبة في حياته بطريقة أو بأخرى بحسب ظروفه، ولا أملك وصفة جاهزة لذلك.

في ظني، الأفضل لك أن تُحني رأسك أمام العاصفة ولو قليلًا، وأن «تزدرد» الموضوع بدلًا من أن تُلهي نفسَك بوسائل مصطنعة (كالقراءة أو الموسيقى). والسلوان الوحيد أن سنوات شباب أي إنسان رقيق الطباع مثلك لا تكاد تخلو من مثل هذه الظروف، لا سيّما حينما تأتي مصحوبة بتطوّرات جسدية طارئة، لكن أغلب الشباب يخرجون سالمين من هذه الفترة دون أن تمسّهم هذه التطوّرات بأي سوء. وسبب ذلك أن طباع الشباب المرهفة الرقيقة تتأثر سلبًا وعلى الأخصّ في سنوات الصِّبا المفعمة

بالحياة، يحدث ذلك حينما يتحتّم عليهم أن يضربوا صفحًا عن تلبية رغباتهم ومطالبهم البريئة، دون أن يحصلوا على مقابل من الحياة، ودون أن يمنحهم ذلك النضج سعادة بديلة تعوِض ما سُلِب منهم. ولكن شيئًا فشيئًا، حينما يستوي عود المرء ويصير رجلًا واعيًا، تنشأ قيمة جديدة، ويُولَد مغزى جديد للحياة، يمنح الإنسان طاقة جديدة مشبوبة.

لكن سأتعمد ألا أقول شيئًا عمّا يتصل بذلك النضج من تغيرات جسدية وجنسية تطرأ على حياة الشاب، أقول أتعمّد ذلك لئلا أشوّش على اختيار طريقك في الحياة وعلى تجاربك الخاصة. يتعذر إسداء النصح في هذه الموضوعات، لأني أكنّ احترامًا عميقًا لكل إنسان يسلك سبيله الخاص في الحياة، ولا يُشرِك الآخرين في حياته. لن تسيء الظنّ بي، أليس كذلك؟

تحياتي القلبية

المخلص: هيرمان

رسالة إلى شاعر شاب (١٩٠٩)

عزيزي المحترم..

أشكرك على خطابك الرقيق، وكذا على إرسالك نماذج من أعمالك الشعرية والنثرية، التي نظرتُ فيها باهتمام، وعثرتُ بداخلها على بذور مطمورة لبداية فنّية متميزة. أخجلتْني ثقتك بشخصي، لكني سأخيّب ظنّك للأسف؛ إذ بعثتَ إليّ بنماذج من محاولاتك الشعرية والنثرية، راجيًا أن أوافيك برأي حول موهبتك الأدبية، وهو طلب بسيط لا ضير فيه، ولا سيما أنك تسألني ألّا أجاملك، وأن أصارحك بالحقيقة دون مواربة، ولا أحب إلى قلبي من إجابة حاسمة قاطعة أردّ بها على سؤالك المباشر.

بوجه عام، الحقيقة صعبة المنال، بل أكاد أقول إن الحقيقة مستحيلة البلوغ. ومن هنا يتعذر الحُكم على الموهبة الأدبية/الشعرية لكاتب ناشئ لم تتيسّر لي رؤيته وجهًا لوجه إلا عبر مجموعة من النصوص.

ورغم ذلك أمسكتُ في خطابك خيطًا يرشدني إلى ميولك الأدبية، أقصد خيطًا يدلّني هل اطلعتَ على أعمال نيتشه أكثر أم على أعمال بودلير، وهل ليلينكرون هو كاتبك المفضل أم هوفمانشتال(5)، وهل لديك ذوق أدبي أصيل شكّلته قريحة شعرية؟ كما استطعتُ من خلال ما بعثتَه من نصوص نثرية (وهو أمر يُحسَب لك) الوقوف على آثار من تجاريك، محاولًا تكوين صورة عن شخصيتك، وهذا أقصى ما يمكن. وأي شخص يخبرك بأنه قادر على تقييم موهبتك الأدبية من خلال مخطوطات أعمالك المبكّرة -وكأنه خبير

خطوط يحلّل شخصية مشترك في بريد القرّاء في إحدى الجرائد- هو في الواقع إنسان سطحيّ، إن لم يكن منافقًا.

ومثلما لا يتعذر على قارئ النظرُ إلى جوته بعد قراءة «سنوات تجول فيلهلم مايستر» أو «فاوست» مثلًا كأديب بارع مُجيد، ففي وُسْع القارئ نفسه أن يجمع دفترًا يضمّ مجموعة قصائد ونصوص مبكّرة لجوته، ليرى من خلالها كيف اطّلع جوته الشاب على أعمال أسلافه الأدباء اطلاعًا واعيًا مدققًا، فتشكّلتْ لديه موهبة كتّابة الأدب. والقارئ لأعمال جوته المبكّرة مثل «آلام الفتى فيرتر» أو «جوتس فون برلشنجن» سيلمس تأثّر جوته بأعمال «لينتس»(6)، والعكس بالعكس.

وهكذا الأمر مع أساطين الأدباء الذين لا يُمكن اعتبار بواكير أعمالهم علامة مُميَّزة أو كاشفةً لكتاباتهم. ففي أعمال «فريدريش شيللر» الأولى أساليب سردية تقليدية لا طعم لها ولا رائحة، ومن ثم لا يمكن التعويل على أهمية تقييم المواهب الأدبية في سنّ مبكرة، كما يبدو لك.

وأنا إن لم أعرفك معرفة شخصية فلن أستطيع معرفة أي مرحلة من مراحل تطوّر الشخصية تمر بها. ربما لا تخلو قصائدك من وقائع ساذجة بريئة لن تتكرر لك في غضون الأشهر الستة القادمة، لكنّها قد تتكرر في السنوات العشر القادمة.

فهناك شعراء يملكون من الموهبة ما تمكنهم من نظم أشعار تفيض رقّة وعذوبة وهم في سن العشرين، ثم يعجزون عن كتّابة مثلها وهم في سن

الثلاثين، أو -وهو الأسوأ- كتابة الأشعار نفسها التي كتبوها وهم في العشرين. وهناك مواهب أدبية أخرى لا تدرك مرحلة الوعي الحقيقي إلا في العقد الثالث أو الرابع من عمرهم.

خلاصة القول: سؤالك عن إمكانية تحقيق شهرة أدبية في المستقبل، يشبه سؤال أُم تسأل إن كان طفلُها ذو السنوات الخمس سيكبر يومًا وينضج أم سيبقى صغيرًا. قد يظل الصبي قزمًا حتى سنّ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، لكنه ما يلبث أن يتحوّل فجأة إلى مارد ضخم.

وكان مما أثلج صدري في رسالتك هو أنّك لم تحمّلني مسؤولية مستقبلك الأدبي. كما يفعل كثير من أترابك الشباب، فكثير من الكُتّاب الشبّان يتوجّهون بأسئلتهم إلى كاتب طويل الباع وراسخ القدم في دنيا الأدب بسؤال، هل يواصلون الكتابة أم يتوقفون، فيجعلون مسألة مواصلة الكتابة أو التوقّف عنها مرهونة بإشارته، وموقوفة على ردّه. عندها قد ينفق الكاتب حياته مذبذبًا بين قطبَين متنافرَين.

بهذا القدر أكون قد أجبتُ عن خطابك. لقد سألتني طلبًا يتعذّر عليَّ الوفاء به للأسف، لأنه خارج عن استطاعتي، لكني في الوقت نفسه لا أودّ إنهاء خطابي بكلمة تكدِّر صفوَك، أو ترى فيها صدًّا ورفضًا من جانبي. اسمح لي أن أهمس في أذنك بكلمة رقيقة: لا أستطيع التنبؤ إن كنتَ ستصير شاعرًا بارعًا في غضون خمس سنوات أو عشر، لأن الأمر ليس مرهونًا أبدًا بما تكتبه اليوم، بل بما ستبدعه غدًا.

أخيرًا: هل ينبغي بالضرورة أن تصير شاعرًا أو كاتبًا؟ فكثير من الشباب الموهوبين يرون في كتابة الشعر غاية نبيلة، لأنهم يظنون أن كونك شاعرًا يعني أن تكون إنسانًا محبوبًا، صافي القلب، ليّن الطباع.

في مقدور الإنسان أن يتخلّق بهذه الخصال دون أن يكون بالضرورة شاعرًا. والأَولى به التحلي بهذه الصفات بدلًا من ادعاء موهبة أدبية مشكوك في أصالتها. أما إن كان الغرض من اللهاث وراء حرفة الأدب هو تحقيق الشهرة وذيوع الصيت، فالأولى بالمرء أن يحترف التمثيل.

كونك تشعر بالرغبة في كتابة الأدب فهذا موضوع ليس مخجلًا ولا يضفي عليك ميزة خاصة، فعادة التعبير عن التجارب الحياتية تعبيرًا واعيًا، ثم صوغها في قالب أدبي متقَن، سيطوِّر شخصيتك وسيصنع منك إنسانًا حقيقيًّا. لكن الكتابة -من ناحية ثانية- قد تضرك كما أضرت بكثيرين من قبلك لأنهم وقعوا في فخّ الغواية، أقصد غواية إلقاء التجربة المعيشة وراء ظهورهم، والانصراف إلى توظيف التجربة الحياتية داخل عملٍ أدبي، بدلًا من الاستمتاع بالتجربة ذاتها، إذ درج بعض شباب الشعراء على تأمُّل تجاربهم الحياتية من منظور شعري/أدبي فقط، فيتحوّل الكاتب إلى «مهندس ديكور عاطفي»، يخوض تجارب الحياة لا ليعيشها، بل ليكتب عنها.

إذا استولى عليك شعور بأن محاولاتك الأدبية تعينك على رؤية نفسك ورؤية العالَم رؤية أوضح، وأن ما كتبتَه يشحذ عزيمتك على خوض غمار

الحياة، ويجلو معدن ضميرك، فالزم مقام الأدب. ولا يهمّ إن صرتَ كاتبًا أو لا، المهمّ أن ما كتبته سيصنع منك إنسانًا واعيًا بقيمته في الحياة، إنسانًا يقظًا، حادَّ البصيرة. أما إذا اكتشفت أن كتابة الأدب والاستمتاع بها ستقف حجر عثرة في مشوار حياتك ولو في أضيق الحدود، وأنها ستغويك بسلوك طرق جانبية، نهايتها الغرور وتبلّد الشعور، فألقِ بكل القصائد والنصوص وكل ما كتبتَه، بل وكل ما كتبناه جميعًا، وراء ظهركَ.

تحياتي القلبية

المخلص: هيرمان هسّه

رسالة إلى لودفيج رينر (جاينهوفِن، ٢٤ نوفمبر ١٩١٠)

عزيزي السيد رينر..

تلقيتُ خطابُك في يومٍ أخذتُ فيه قسطًا من الراحة لالتقاط الأنفاس وسط كومة من الأعمال (إن كنتَ تسمّي الأدب عملًا)، وبالتالي سأجيب عن خطابك وإلا غرق في بحر الانتظار.

لتترك للنقّاد أن يقرروا إن كنت ستصير رسّامًا جيدًا أو لا، فليس بمقدوري أن أُسديك نصيحة بشأن ذلك. أما إن كنتَ على يقينٍ من إنك تمارس الرسم من أعماق قلبك بدرجة يمكن معها أن يحلّ الرسم محلّ الموسيقى، فعليك بمواصلة الرسم، فهذا هو المحك عندي؛ إذا عثرنا على شيء يشبه في وقعه على الإنسان وقْع الموسيقى فعلينا أن نقبض عليه ولا نفارقه، فلا يوجد في الحياة ما يستحقّ أن نسعى وراءه مثل الاستسلام للإحساس بالموسيقى، والإحساس بالتأرجح والشعور بإيقاع الحياة، والإحساس بالتناغم الذي هو مبرر وجودنا الحقيقي.

أستطرد فأقول: ولما ضعف إنتاجك كموسيقيّ، أو لم تعُد تكتب موسيقى على الإطلاق حسبما علمتُ من خطابك، فمعنى ذلك أن الموسيقى لم تعُد غايتك من الحياة (بالمعنى الواسع للكلمة)، لأن طباعك طباع رجلٍ فاعل منتج، يكدّ ويبذل الجهد في أي مجال. الحقيقة أنني لا أستطيع شرح ذلك، كل ما في الأمر أنني أملك أنفًا حساسة لم تخيب ظني يومًا.

أتفهَّم تمامًا اعتزامك شدّ الرحال السنة القادمة مُجرِّبًا حظك في مكان آخر، ولا أرى ضيرًا في العودة إلى هنا مرة أخرى، فمن غير المستحبّ لنا جميعًا، بمن فيهم أنت شخصيًّا، أن تطول فترة التعافي من أعمال التواصل المجتمعي(7).

قد تعاني من إحساس أنك لست مجرّد رسّام فقط، وأنك لا تريد أن تكون مقصورًا على الرسم دون الموسيقى، ونظم الشعر، والتواصل الاجتماعي مع الناس، وتلمُّس مَواطن الجمال في جميع مناحي الحياة، وأنّ بداخلك ما هو أكبر من مجرّد الانزواء في ركن قصيّ في غابةٍ تمارس الرسم عامًا وراء عام، كرسّام متوحّد يجد سعادته في الرسم وحده.

وقد تشكو أحيانًا لأنّك ما زلت مبتدئًا في عالَم الرسم، لكن هذا معناه أنّ بداخلك ثراءً يفوق ثراء أن تكون مجرَّد رسامٍ فقط، وأن بداخلك شيئًا طيبًا، الأمر الذي نفتقده اليوم في كل مكان، ولا نتوقّف عن البحث عنه، بينما يزخر العالم بمواهب تقنية تفوق الحاجة.

أما عن مشاعر الوحدة التي خبرتُ مذاقها -على اختلاف ألوانها- قبل أن أصير اليوم هذا الرجل اللطيف المهذّب في أعينكم، فأقول لك: إنّ الوحدة لا تفيد المرء في تأمُّل ذاته إلا إذا كان قد تنازعته قبل ذلك ظروف الطبيعة المحيطة. بمعنى أوضح، إذا كان الإنسان قد وقع تحت مؤثرات طبائع أقوى منه بكثير، وإلا ستكون الوحدة سُمًّا زُعافًا يجري وراءه الرجل الغارق في عملٍ لا طائل من ورائه، مثلها مثل معاقرة الخمور أو إدمان المورفين،

ستكون عندها الوحدة سُمًّا يدفع بالفنان تحديدًا إلى تدمير ذاته.

لم تكن الوحدة يومًا مصدر راحة بالٍ لأي إنسان، لأن مشاعر الوحدة لن تكفّ يومًا عن تكرير شريط الذكريات القديم دون كابح أو عائق.

من ناحية أخرى، استمتعتُ كثيرًا بالنقد الموجّه إلى روايتي الأخيرة «جيرترود»(8)، فالعمل واضح وضوح الشمس، وعيوب الرواية أوضح من أن يضطرّ أحد إلى أن يقول رأيه، ولكن لا، فالنقد يستغلّ أول فرصة سانحة لينتقم من طيبة الفنان الزائدة في الماضي، ليثبت أن كاتب الأمس العبقري صار أبله اليوم. لكن هذا النقد لا يخلو من فائدة، فهو يستحث العقول النابهة وأتباع الكاتب الأوفياء الذين يأخذون كل شيء محمل الجدّ، ويبالغون في مديح العمل، ويجدون كل شيء وكأنه قطعة هابطة من الفردوس، بينما أجلس أنا مراقبًا الجميع، مؤدّيًا مهمتي المعروفة كفنان، محاولًا أن أتعلّم شيئًا من النقد الموجّه إلى أعمالي.

لأكتف بهذا القدر، فها قد وصل ساعي البريد مُحمَّلًا برسائل أخرى، لتبدأ الماكينة في الهدير بأصوات جديدة.

رسالة إلى راينهارد بوخفالد (١٩١٢)

السيد المحترم..

أشكرك على خطابك الرقيق، وكذلك على إرسال نسخة من مقالك الذي أثار اهتمامي، وأتّفق مع ما جاء فيه، لكني لا أرى سبيلًا جديدًا لبلوغ المقاصد الجديدة التي أشرتَ إليها، لأنني من الناحية الأكاديمية رجل لم أحظَ بتعليم نظاميّ، بمعنى أنني لم أدرس دراسة جامعية، ولا علم لي بمناهج البحث التاريخي والنقدي إلا من خلال مطالعاتي الشخصية غير المنتظمة. طالما نظرتُ إلى كل الموضوعات المتصلة بدراسة الفنّ نظرةً متشككة، فشعوري يقول إنّ البحث العلمي لم يسهم في فهمنا لطبيعة العلم إلا عبر إسهاماتٍ أتت بضربة حظ، دون تخطيط.

يُهيَّأ لي كرجل غير متخصص أنه يلزم لتأويل أيّ نشاط فنيّ أو معايشته «مَلَكة فطرية» وُلدت مِن رَحِم الموهبة الذاتية، أو بدافع الشغف والرغبة. والذي يتحلّى بهذه «الملكة» في وسعه الاستمتاع بالفن، بينما يتعذّر على غيره ذلك.

في ظنّي، لم يدرس «علم الأدب» مسألةَ «الشعرية» إلا لمامًا، ولن يتمكن أحد من دراسة الشعرية حق دراستها إن لم يطوِّر مصطلحات راسخة نابعة من «علم جمال» مثالي يحدد ماهية «الجميل» وجوهره.

أرى في الفن لغزًا أزليًّا، شأنه في ذلك شأن الحياة، لغزًا نحاول الإلمام به،

وتقليبه على كل وجوهه، لكننا نعجز عن سبر أغواره أو إدراك من أيّ ينبوع صاف ينهل.

وعليه، فلن ينجح في دراسة الأدب ولا النظر فيه إلا إنسان موهوب، نشأت موهبته مِن رَحِمٍ فنيّ خالص. وفي رأيي، يتوزَّع تاريخ الأدب في اتجاهين أساسيين. يذهب الاتجاه الأول إلى أن الأدب هو كل الآثار الفكرية/الثقافية التي حفظتها لنا الكتابة، بما في ذلك الصحف والتشريعات، إلخ. وهذا الاتجاه وطيد الصلة بالأفكار وتاريخ الحركات الفكرية عبر التاريخ، وهو يختلف عن تاريخ الحضارة.

أما الاتجاه الثاني فمهموم بدراسة الجانب الفني وحده، وأقصد بذلك «علم الجمال» «وعلم النفس»». ورغم اهتمامي وتقديري لهذا المنحى، لكني لا أرى فيه أي فرصة لتطوير منهج علميّ، فإدراك المكونات الفنية للعمل الفني مترابط بالأساس بالاستعداد الشخصي لمن يتصدّى لهذه الظاهرة. في مقدور أيّ إنسان تعلُّم كيفية تطبيق مناهج التحليل على اختلاف أنواعها، لكنه لن يمكنه اكتساب مَلَكة الشعور الفني. ولا أدلّ على صدق حديثي من حالة «الشك» المسيطرة على الدارسين والمؤرخين الذين يتصدَّون لدراسة ظواهر العصر الحديث. فالمؤرخ أو الناقد الذي يمتلك استعدادًا فطريًّا لاستشعار الواقع سيكون قادرًا على الكتابة عن الأدب انطلاقًا من شعوره الشخصي وحده، وقد يميل -على خلفية موهبته الشخصية- إلى الوقوع إما في حب هاينريش هاينه أو أيشندورف، وإما في حُب مدينة شتراسبورج أو رحلات جوته في إيطاليا، ومهما حاول توخّي الموضوعية فسيبقى دومًا

حُكمه في صفّ ما ينسجم مع طبعه ويوافق ذائقته الشخصية، حتى لو كان ذلك ضد سعيه أن يبدو حُكمه في إطار الحياد والاقتراح.

أثمِّـن جهود مؤرخي الأدب لدينا في ما يتصل بحرصهم على توخي الدقة وتحري الأمانة العلمية في تحقيق النصوص، تحديدًا في ما يخص عملية التحرير. أما على صعيد التقييم الفني، فأرى أن عملية تأريخ الأدب لدينا ضعيفة للغاية، فعملية «تنقية» التراث الكلاسيكي من الشوائب اضطلع بها الشعب القارئ وحده، لا طرائق البحث العلمي، وفي كثير من المجالات لا يزال أمام هذا الشعب عديد من الخطوات التي ينبغي القيام بها. في ظني لا نجد اليوم في تـاريخ الأدب مـن يـرتفع صوته ليقول مثلًا إن هيبيل (فريدريش) هو أعظم قاص ألماني، أو إن كيلر (جوتفريد) يفوق جوته عذوبة وقوةً أدبية من ناحية تأثيره الفني.

ونتيجةً للمنهج العلمي الخاص بتطوّر الأدب، فإننا اليوم نقلل من شأن الأدباء المحافظين، بينما نعلي من قَدْر الأدباء الثوريين من أمثال برايتينجير(9)، وبودمر(10)، اللذَين لم يكونا أديبَين بأي حالٍ من الأحـوال، أو -لنكـون أكثر وضوحًا في ضرب المثـل- نقلل من قيمة موريكِه، ونبالغ في تقدير ليلينكرون.

يستحيل أن نعثر يومًا على معيار موحد نحكم من خلاله على القيمة الشعرية للعمل الفني، فأي دارس يتحلى بقدر من الحساسية الفنية والموهبة لن ينجو من خطر الانزلاق في غواية التعلق بما هو قريب من ميوله ومألوف إلى

ذائقته، ولا من أن يكون مفرط الحساسية في الاستجابة لهذا الصوت. وكثيرًا ما يصادفنا ذلك في الموسيقى على وجه الخصوص، حينما يكون تقييم ما نسمع مردّه الشعور والعاطفة، لا العنصر التقني/الجمالي. مثلًا: حينما تلتقط الأذن المرهفة بسهولة بالغة مغريات الإيقاع الموسيقي، وتستمتع بسماع أكثرها رهافة.

أكتفي بهذا القدر. أرجو أن تُكلَّل جهودك بالنجاح. أما في ما يخصني كرجل لم يتلقَّ تعليمًا نظاميًا، فليس أمامي سوى أن أواصل طريقي دون منهج، وهذا لا يمنع أن تكون مقترحاتك نافعة، فلا يجوز أن تعوقنا فكرة أو تصور أن الكمال مستحيل، وأن العلم مجرد خطوة على الطريق، لمواصلة البناء وتحقيق الممكن.

رسالة إلى فِلهلم أينزِله، ١٩١٢

عزيزي السيد أينزِله..

أنْ تكتب لي أسهل بكثير من أن أكتب لك، فأنت تعرفني أفضل مما أعرفك. لا أملك إلا أن أقبل إطراءك المبهج على أعمالي، دون توجيه الشكر، إذ لا أملك ردًّا يُوفِّي حق المديح.

غمرني خطابك بسعادة بالغة، ومن المهم أن تعرف ذلك.

تقول في خطابك: «ممتنًّا على كل شيء.. أعتزم الانتقال من دربٍ إلى درب.. وما تدري نفسي أين أحطّ الرحال يومًا».

هذا هو عين الصواب. قد يبدو ظاهريًّا أن طريقنا في الحياة قد رسمته مسبقًا ظروف بعينها، لكنها رغم ذلك تحمل بين طيـاتها سُبل عيشٍ جديدة، وفرص تغيّر فريدة. وكلما زادت فرص التطور والتغير زاد نصيبنا من براءة الطفولة، ومن الامتنان للحياة، وكلما عظمت قدرتنا على منح الحبّ تحتّم على الإنسان ألا يُكبِّل روحَه الشابة بقيود الوظيفة، ولا بأحكام السنّ.

أن نظل شبابًا يعني أن نحتفظ بما هو طفولي داخلنا، وكلما زاد حظنا من الطفولة، عِشنا بثراء وسط هذه الحياة الباردة.

أفضل تمنياتي في طريق حياتك الجديدة..

رسالة إلى أرض المعركة(11) (عشية عيد الميلاد، ١٩١٥)

صديقي العزيز..

أشكرك على آخر بطاقة أرسلتَها، وأتمنى ألا تنقطع خيوط التواصل والمودة. ورغم سوء المراسلات البريدية في سويسرا حاليًّا، لكن الخطابات تصل في النهاية على كل الأحوال.

سمعت بالطبع عن محاولة إحدى الصحف إلصاق الافتراءات بشخصي(12).

بعيدًا عن ذلك، تلقّيتُ أربع رسائل أو خمس من جبهة القتال حول هذا الموضوع، ولاحظتُ أنها جميعًا تكرِّر ما أتيتَ أنتَ على ذكره. كل الخطابات الواردة من الجبهة تحمل شيئًا مما أراه السمة الأولى المميزة للجندي المقاتل على الجبهة، شيئًا يحمل السكنية والطمأنينة، وغض الطرف عن صغائر الأمور الحمقاء، بل والسخرية منها. الأهم بالنسبة إليّ ما كتبتَه حول أفكارك عن الوطن والحنين إليه.

أدركُ تمامًا أنّ الجندي المقاتل على خطّ النار لا يكاد يملك الوقت الكافي ولا تحضره الرغبة ليصرف تفكيره في العواطف والمشاعر الصبيانية، بل ولا يملك وقتًا ولا مزاجًا لمشاعر الحزن والكآبة، فطبيعة عمله لا تسمح له بذلك. ورغم ذلك، كشفَتْ جميع الخطابات الواردة من جبهة القتال عن تفكير عميق من القلب في الوطن، فيكتب أحدهم مثلًا إنه لا يستطيع

كبح رغبته في التفكير في العودة لرؤية سور حديقة منزله ليشرب من البئر التي حفرها بنفسه، بينما يكتب آخر عن شعوره بحزنٍ عميق لأن أذنه لا تسمع سوى لهجة أبناء شمال ألمانيا (فهو مقاتل في إحدى المناطق الخاضعة للحكم البروسي)، وأقصى ما يتمناه أن تجمعه غرفة مليئة بأصدقاء من منطقة شفابِن (جنوب ألمانيا)، بعد أن عاش فترة طويلة في مدينة هامبورغ (شمال ألمانيا). وفي المرات النادرة التي يزور فيها شتوتجارت، يشعر كأنه قد نسي لهجة أهل شفابن تمامًا.

يدفعني ابن مدينة هامبورغ الشاب لأعيد التدبّر في الأمر، إذ أرى من خلاله بشكل واضح معنى كلمة الوطن، ولماذا لا ينقطع الجندي المقاتل عن التفكير تفكيرًا متواصلًا في مسقط رأسه، حتى لو لم يحمل في قلبه شعورًا بالحنين إلى وطنه، أو توهّم أنه لا يحمل هذا الشعور؟ أتفهَّم شعوره تفهُّمًا كاملًا لأني بعيد عن وطني منذ سنوات كثيرة، فترة تغطي نصف حياتي.

يشبه شعور الحنين إلى الوطن عند ذلك الجندي، ابن شفابن، المقاتل في هامبورغ، شعور مدلَّلٍ يتحلّب الجوعَ مثل «مصّاصة أطفال». حكى لي بعضهم قصصًا عن روعة الاستمتاع بطعم قهوة سادة في صباح أحد الأيام بعد ليلة ندية قضاها رابضًا داخل أحد الخنادق، أو تناول حساء بطعم الماء بعد المارش العسكري! يقولون إنّ كل الوجبات للأسف سيئة هناك. كان لهؤلاء الجنود في السابق حواسّ تذوّق مرهفة، أما اليوم فهم يملكون معدةً جيدة، والمعدة الجيدة مخلوق ممتنّ لأطايب الطعام.

ينسحب الأمر نفسه على كثير من الناس في ما يخص الوطن.

يومًا وراء يوم، يشد انتباهك كثير من الأشياء في حياة البشر على جبهة القتال، وهي أشياء غاية في البساطة والفطرة والصلابة، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا دونها، كالطعام والشراب، أو كتناول «الشنابس» (مشروب كحولي مشهور في ألمانيا) في أيام البرد، أو الدندنة بأغنية أو إلقاء نكتة في أثناء المارش العسكري، أشياء من بينها التفكير في إنسانٍ تحبّه، إنسان يخفق قلبه لو حدث لك مكروه.

الحنين إلى الوطن من بين هذه الاحتياجات الأولية، التي يستحيل يومًا أن تدركها بصيرة الإنسان إذا كانت عضّة الجوع لا تقرص بطنه.

على أنني لا أقصد بذلك الوطن كدولة، فلا شك أن الوطن من الحاجات الروحية السامية للإنسان، بل أقصد على وجه التحديد شعور الحنين إلى المزرعة البسيطة، وإلى بيت كلب الحراسة المطبوع في ذاكرة الجندي الفلّاح وهو في غربته على جبهة القتال، وأقصد الصور التي يحتفظ بها المرء منا في ذاكرته كأفضل ما يُمكن أن تحفظه الذاكرة. الحقيقة أن هذه الصور والذكريات ليست جميلة لأن الوطن جميل بالضرورة، بل جميلة لأننا لما رأيناها للمرة الأولى في حياتنا كنا قد رأيناها بأعين الطفولة التي تفيض بالامتنان والبراءة. وبمرور الأيام تصير الندبة الموشومة على ذقن الجدّة العجوز، والكوّة التي تتوسّط سور الحديقة في منزلنا القديم، أجمل ما في الوجود.

ليس هذا اندفاعًا وراء العواطف، على العكس تمامًا، فما دمنا لم نبلغ أرقى أطوار الحياة الروحية/الفكرية، يمسي الوطن أعلى درجات اليقين التي نملكها.

سَمِّ ما شئتَ تحت اسم الوطن، قد يكون الوطن منظرًا طبيعيًّا، أو حديقة، أو ورشة عملتَ فيها يومًا، أو رنين جرس كنيسة في قريتك، أو رائحة ماء. قد يكون سحر الوطن بالنسبة إلى أحدهم أن يعاود سماع صوت تدفّق ماء النهر في الوادي أو صوت أنغام الأرغون داخل الكنيسة، بينما يمسّ شغاف قلب إنسان آخر أن تداعب أنفَه رائحة البطاطس المقلية جيدًا بالطريقة التي كانت تعدّها له أُمه، مغموسة بقليل من البصل. لكن الأمر ليس في الكنيسة ولا في الطعام، بل في حلاوة اجترار ذكريات الصبا، في انطباعات أيامنا الأولى الراسخة في الذاكرة، وفي أيامنا الخوالي التي كانت مفعمة بالبركة. واعلم أن لكلٍ منا مفهومه الخاص عن الوطن. بالنسبة إلى رجل يعيش في الغربة مثلي، كلما زرت مسقط رأسي، رأيت عامل السكك الحديدية في شفابن كطائر من الفردوس، ناهيك بعادات المنطقة وتقاليدها.

فلو وُلِدتَ في مدينة، واجهات بيوتها مقبَّبة الشكل كالجمالون، فسوف يخفق شعور الوطن في قلبك بشدة بمجرد أن ترى منزلًا مشابهًا يحمل التصميم نفسه، حتى دون رغبة منك، لأنه أمر يلامس أعماق قلوبنا، يلامس ذلك الكنز الصغير المدفون داخلنا منذ سنوات الصبا المبكّرة. تمتزج الصور بالانطباعات التي قلّما نوفّيها حقّها، لكننا ما إن نلمسها حتى تتشكّل أمامنا

بلّورة صافية.

صديقي العزيز، صحيح أنني أحكي لك عن أشياء تعرفها أكثر مني، لكني قد أعيد رؤية الحياة واكتشافها من خلال أعينكم، بعد أن أوشكتْ عُطلتي على الانتهاء في غضون أسبوعين.

حتى لو لم يتحقق ذلك، فلا يعتريني شعور بالخوف ولو للحظة واحدة من عدم اتفاقنا في كثير من الموضوعات، أنت الرابض على الجبهة وأنا. أنتظر وآمل أن نختلف من جديد، لكنك سترى حال زيارتك إلى أرض الوطن أن كثيرًا من الناس في الوطن يتقلّبون على الشوك، ولا يركنون إلى الراحة والدعة، وكما اتخذ حبّ الوطن لديكم، أنتم أيها الجنود المحاربون على جبهة القتال، شكلًا جديدًا، شكلًا يفيض بالحيوية، فقد تعمّق وتجدّد لدينا نحن أيضًا شعور بحبّ الحقيقة والطهر الداخلي.

تخلو حياتنا من المعنى إن لم نضع نصب أعيننا مُهمّة أو هدفًا. ولبلوغ ذلك الهدف، فإننا نؤْثِر المكابدة والمعاناة ومواجهة الموت (إن استدعى الأمر) على لزوم الراحة والسكينة. من الصعب أن نصف «الخير» الذي ندافع من أجله. الوطن الرُّوحي هو ما يبقى. أن نثق بالأفكار، وأن نقدّر التزاماتنا الروحية. الخير هو وسيلة من وسائل التعبير والتفكير. لا شك أنك تعلم ذلك، كما تعلم أننا سنتجاوز خلافاتنا. فإذا اختلف مفهومي عن الوطن عن مفهومك عنه فلدينا كيان أسمى وأرفع يجمعنا، اسمه «بلدنا». ستقرأ هذه الرسالة منشورة في إحدى الصحف، لذلك لم آتِ على ذكر الزوجة ولا

الأبناء، إذ طُلِبَ مني كتابة رسالة تحية لجنودنا المقاتلين على الجبهة، ولم أكن أقدر على ذلك إلا وأنا أكتب إلى شخصٍ بعينه. لستُ هنا في معرض إلقاء الحِكَم والمواعظ، وليس ذلك ما يعنيني في الوقت الراهن. فما أودّ أن قوله حقًّا هو أني أفكّر فيك أنت، وفيكم جميعًا أيها المرابطون على الجبهة، دون الشعور بأي اختلاف يفرّق بيننا. في البداية كان الأمر كالتالي: كانت حياتكم بالنسبة إلينا حياةً مجهولة وغريبة ومخيفة، وكانت رسائلكم أفضل وسيلة لنتعرف على الكثير عن حياتكم على خط النار، فساعدتنا على تصوّر شكل حياتكم على وجه التقريب. لكن ذلك لم يكن المهمّ، المهمّ حقًّا كان شيئًا داخليًّا، إذ نراكم أبطالًا تُلْقُون بأنفسهم إلى الجحيم في سبيلنا، ولم يكن شعورنا نحو ذلك شعورًا نبيلًا على أي حال.

لكن الأمر قد تبدّل قليلًا في قلوب الذين يأخذون الوطن والمستقبل مأخذ الجدّ. نحن لا نفكر إلا في ذلك، في الشعور بمزيد من الامتنان لجهودكم، متفهّمين بشكل أعمق جدوى ما تؤدّونه لنا.

أما اليوم، بعد أن كنا نجلس في السابق في منازلنا متحررين من حمل واجبات حقيقية، فقد صِرنا معبَّئِين تعبئة عاطفية، كل بحسب طاقته وبقدر حماسته. لقد انتبهنا الآن إلى واجباتنا، واضطلعنا بها، صرنا لا نعيش من أجل أنفسنا فقط، ولا من أجل مصالحنا ولا توفير أسباب الراحة لأنفسنا، بل من أجل غاية واحدة مشتركة، هي ما تدافعون عنها أنتم على جبهة القتال. ولقد نما ذلك الشعور لدى أغلبنا ببطء، لأن تلك التعبئة العاطفية لم تجرِ تنفيذًا لقرار تعبئة عسكريّ. لم نجد أمامنا بُدًّا من أن نعيَ

الواجبات والمهامّ الملقاة على عاتقنا.

أمَا وقد تحقق المراد، فقد تخلصت من ذلك الشعور الأحمق المدمر، شعور المرارة والخزي الذي يعترينا نحن القاعدين في منازلنا، وشعرتُ بأنكم أنتم أشقائي البواسل الأعزاء تحمونا وتدافعون عنا. ويتحتّم على كل إنسان، حتى لو كان وزيرًا، ألا يتجاوز هذا الشعور أبدًا، إذ ينبغي لكل مواطن أن يحتفظ في قراره نفسه بشعور الامتنان الدائم لكم، وهذا حقكم علينا أيها الجنود.

صديقي العزيز.. أرجو لك حياة هنيئة، ولا تبخل يومًا بالبطاقات البريدية.

تهبّ علينا الآن رياح دافئة، وشذا الربيع يتدفق من غابة صغيرة خلف المنزل، لكن شتاءً طويلًا ينتظرنا على الأبواب. تحياتي القلبية بمناسبة حلول أعياد الميلاد.

إلى هانز شتورتسينيجر (بيرن، ٣ يناير ١٩١٧)

عزيزي شتورتس..

شكرًا على خطابك الرقيق الذي يصعب الردّ عليه.

ما إنْ يقُل الواعظ: «أنصتوا إلى صوت قلوبكم» حتى يسأله كثيرون: «نعم، أخبرنا ماذا يقول هذا الصوت، اشرح لنا». لكن الواعظ لا يستطيع شرح ذلك لأنه لا يتوجّه بكلامه إلى البشر في جميع أرجاء الأرض، كما أنه لا يطلب من الناس القيام بمهمّة يمكن إنجازها قولًا بالصلاة، أو فعلًا بالتبرع للكنيسة، بل إنه يسأل كل شخص أن يستشعر ذلك الصوت داخل قلبه، وأن يتدبّره.

عزيزي، إنّ ما تسأله الآن هو السؤال نفسه الذي يطرحه عليَّ كثير من الناس في رسائلهم: «والآن ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟»، لكني لا أملك ردًّا، فلم أطّلع على سريرتك ولا عِلم لي بقدراتك.

أنا لا أطلب منك شيئًا سواك أنت، وحين يتدبّر المرء هذا الصوت تدبرًا عميقًا، سيعثر على طريقه في الحياة، مثلما أواصل العثور عليه يومًا وراء يوم وأسبوعًا وراء أسبوع على مدار سنتين ونصف السنة، وما زلتُ في طور البحث عن طريقي. قد يكتفي واحد بأن يسعى هنا وهناك، ويجد ثانٍ فرحته في الانخراط في صحبة الأصدقاء، وقد يرفض ثالث أداء الخدمة العسكرية، وقد لا يرى رابع حرجًا في أن يقوم بمحاولة محمودة لاغتيال

سيدني سونينو في إيطاليا(13)، أو قتل ألفريد تيربيتس في برلين(14).

ولكلِّ إنسان طريق يسير فيه. فلو أطلقت أنا النار على سونينو فإني بذلك أقترف إثمًا عظيمًا، لأنني تصرّفت على نحو يجرح شعورًا عميقًا يسكن داخلي، لكن هناك من لا يجدون في أنفسهم حرجًا من اقتراف تلك الجرائم، لكن عليه أن يقبل بدفع ثمن هذه التضحية.

طالما كنتُ على يقين أن موقفي (حتى على الصعيد المهنيّ ككاتب) سيؤدي إلى قطيعة مع وطني، ومع عائلتي، ومع وظيفتي، ومع بعض الأسماء، إلخ. لكن عزمي على المضيّ قُدمًا لم يَلِنْ.

رأيي في الموضوع كالتالي: أشعر أننا -معشر الكُتّاب والفنانين- «بَشَرٌ ذوّاقة»، فنحن أشبه بكتائب نتقدّم الصفوف الأمامية للإنسانية، مهمّتها أن نتكهّن بالمستقبل القادم، ونحن كفنانين نجهر بهذه الحقيقة ولو لم يصدّقنا أحد، وحتى لو لم نعرف سبيلًا لتحقيق ذلك.

مع وصول خطابك تلقّيتُ رسالة من رومان رولان(15) يقول فيها ببساطة: «إنّ آمالنا وأفكارنا هي دعائم المستقبل». وأنا شخصيًّا أومن بقوة الفكرة، فالفكرة عندي ليست وهمًا، بل حاسة سادسة وحدس بمستقبل الإنسانية. لا تعتذر على وسْم نفسك بـ«الجُبن»، فقد يقيك موقفك المتعقّل الكيّس الفطن من نوائب الحياة. وسواء أحدث ذلك اليوم أم غدًا، فكل تغيّر يطرأ على العالم، وكل فكرة جديدة عظيمة لصالح البشرية، لا بد أني مُلاقيها، أقصد على طريق التجريب والمغامرة، عن طريق الأمل، وعن

طريق الحدس والشعور، لا طريق المعرفة المتعقّلة، ولا انتهاز الفرص والنفعية، ولا ممارسة السياسة، إلخ.

سأضرب لك مثلًا: قد يسخر أحدهم ممن يرفضون أداء الخدمة العسكرية، لكني أرى أن هذه هي أكثر ظواهر العصر الراهن إثارة للتقدير، حتى ولو ألقى كل شخص أعذارًا مقبولة لفعله، لكنك في الواقع تتهيأ لحراكٍ جديد عن طريق منح فرصة المتخلّفين عن أداء الخدمة العسكرية لأسباب أخلاقية، أقول تمنحهم فرصًا لأداء الخدمة في المجتمع المدني عوضًا عن تأدية الخدمة العسكرية. ربما لا يُطَبَّق ذلك في الوقت الراهن تحديدًا، لكن من المؤكد أنّه سيُطبَّق يومًا ما، وربما أيضًا يأتي يوم يُكلَّف فيه ثلاثة جنود بأداء عشر ساعات من الخدمة المدنية، بينما تُترك أعمال القتال إلى البرابرة والأوغاد.

لكن شيئًا من ذلك لن يتحقق إن لم يتحل حفنة من الرجال بالشجاعة الكافية للاعتراض على التوجّه العام، والتخلّف عن أداء الخدمة العسكرية. وهكذا سيكون الأمر مع كل القضايا، لن يتحقّق أي منها إلا حينما تجد القضية من يبذل حياته طوعًا وشجاعة للدفاع عنها. فالحرب التي نشبت سنة ١٩١٤ كان وراءها عشرات الآلاف من المتطوّعين، بينما حرب سنة ١٩١٨ ليس لديها من يدافع عنها.

أكتفي بهذا القدر، فأنا غارق في العمل. عزيزي شتورتس، أنت شخص مدنيّ، صحيح أنك قرأت كثيرًا عن الحرب، لكنك لم تذُق ويلاتها. صحيحٌ

أنني مثلك لم أذهب إلى الحرب، ولم أُجرَح في معركة ولم يُدمَّر منزلي في قصف، لكني كرستُ نحو سنتين ونصف السنة من حياتي لمداواة جرحى الحرب ولرعاية الأَسْرَى، وخبرتُ عن قرب في هذا المجال، وفي هذه البقعة الصغيرة، عبثية الحروب وويلاتها. سيّان عندي إن كانت الشعوب تتحمّس في العادة لإذكاء وقود الحرب أو لا. طالما كانت الجماهير تتسم بالحماقة، ومتى خُيّرت الشعوب بين الإنصات إلى «يسوع المسيح» وبين سماع كلام «قاتل محترف»، فسيقع اختيار الشعب على البرابرة، وبمنتهى الحماسة، ولربما يقع اختيارهم دائمًا على البرابرة، لكني لا أرى في ذلك سببًا لمشاركتهم الاختيار.

أطيب الأمنيات بمناسبة العام الجديد، الذي غمرني بطوفان من العمل الشاقّ، مصحوبًا ببعض بمتاعب صحّية ونوبات صداع حادّة. ابقَ على تواصلٍ معي حتى لو اختلفنا. أراكَ إنسانًا محترمًا رفيع الشأن، حتى رغم مساعيك لتكون رئيس المجلس الاتحادي، ورغم سعيك لحلف اليمين الدستورية أمام مجلس النوّاب(16). أصدّقك كثيرًا في ما تقول.

على أي حال، لن أُلزِمك التزامات أخلاقية من أي نوع، بل الأَوْلى أن أُلزِم بها نفسي وكفى.

رسالة إلى كارل زيليج (١٩١٧)

عزيزي السيد زيليج (17)..

ما إن عُدتُ مِن رحلة إجبارية قصيرة حتى وجدت تحياتك الرقيقة في انتظاري، التي تنسّمتُ منها روائح الخريف العطِرة. لك خالص الشكر.

أرقني تعبير «الهاجس الأسود» الذي أشرت إليه في خطابك. أشاطرك هذه المشاعر عن تجربة شخصية، لكن تجربتي تقول أيضًا إنّ هذه الهواجس هي أصوات حقيقية وجادة مصدرها العقل الباطن، وهي هواجس صادقة في ما تبعثه من رسائل خفية، لكن تأويلنا لها غالبًا ما يكون مُضللًا.

فمعنى بزوغ هذا الصوت الجادّ الحقيقي من أعماقك أن شيئًا ما يريد أن يموت داخل نفوسنا، شيئًا يتّصل بنمط حياتنا الروحية، أو بعَلاقتنا مع العالم، أقصد أن الروح في هذه الحالة تهفو إلى أن تطرح عنها ثوبها القديم، لترتدي حُلّة جديدة. فكل موت داخل نفوسنا إن فهمناه حق الفهم ما هو إلا ولادة جديدة. فكما تبكي العروس وهي تدخل بيت زوجها وملؤها الخوف لتبدأ حياةً لا تعرف عنها شيئًا، فإن طبيعتنا تأخذها رجفة قوية حينما يدق صوت النضج والقدر داخلها.

أطيب تمنياتي القلبية

المخلص

رسالة إلى شابّ من ألمانيا(18) (١٩١٩)

تقول في خطابك إنك غارق في اليأس ولا تدري ما تفعل، ولا بِمَ تؤمن، ولا على أي شيء تعلّق آمالك. لا تدري إن كان للكون خالق أم لا، لا تدري هل لحياتك معنى أم إنها حياة عدمية تخلو من أي هدف أو غاية، ولا تدري إن هل للوطن معنىً أم لا. تقول إنك لا تدري أيجدر بك تحصيل الزاد الروحي والفكري، أم يجدر الاكتفاء بملء بطنك وكفى، فالعالم ممتلئ بالشرور ولا سبيل لإصلاحه.

أعتقد أنّ الإطار الذي تدور في فلكه روحك الآن هو الإطار الصحيح. أقصد .كونك لم تعُد تعرف إن كان ثمّة إله أم لا، وأنك صِرت لا تميّز الخير من الشرّ، أفضل بكثير مما لو كنتَ على يقين من ذلك.س

لو تتذكّر أنك قبل خمس سنوات كنت على يقين من وجود الله، وكنت قادرًا على التمييز بين الخير والشرّ، وفعلتَ آنذاك ما كنتَ تعتقده خيرًا، وخطوت بخطوات واثقة إلى الحرب.

ومنذ ذلك الحين، وطَوال السنوات الخمس الماضية، وهي أفضل سنوات شبابك، أطلقتَ الرصاص، عمّرتَ بندقيتك بالذخيرة، ركنتَ إلى الكسل، دفنتَ بعض رفقاء السلاح، وضمّدتَ جروح آخرين، وهكذا وضعتَ الخير موضع شكّ ومساءلة، فبدأت تختلط عليك الأمور، فتساءلتَ في نفسك: هل ما أفعله خير؟ أليس ما أفعله شرًّا مبرمًا وحماقة وخطيئة لا تُغتفر؟ هكذا كان الأمر. لم يكن الخير الذي كنتَ على يقين منه هو الخير

الحقيقي، ولم هو يكن الخير الأزلي الذي لا يرقى إليه الشك. ولم يكن الرب الذي آمنتَ به آنذاك هو الإله الحق. الأرجح أنه كان إلهًا قوميًّا يخص المجالس النيابية، كان شاعر الحروب، الإله المستند في سلطانه إلى القوانين، الإله الذي كانت ألوانه المفضلة الأسود-الأبيض-الأحمر(19).

المؤكد أن إله الحرب كان إلهًا مهيمنًا جبّارًا، يفوق «الرب يهوه»، المؤكد أيضًا أنّه إله أُريقَتْ دماء مئات الألوف من ضحايا الحروب ابتغاء مرضاته، وبُقِرَتْ بطون مئات الألوف على مذبحه، ونُحِرَتْ أعناق مئات الألوف قربانًا إليه. كان إلهًا متعطشًا للدماء، إلهًا يفوق في وحشيته بوبانتس وجوتسه(20).

أما بقايا العقيدة السليمة التي كنا لا نزال نحتفظ بها داخل أرواحنا البائسة، وداخل أروقة كنائسنا الخالية من الروح، فقد ذهبت بلا رجعة.

هل فكّر أحد يومًا، بل هل استغرب أحد كيف دفن رجال الدين عقيدتهم في أثناء سنوات الحرب الأربع، وكيف أهالوا التراب على عقيدتهم المسيحية؟ كانوا يخدمون المحبة، بينما يمجّدون الكره والحقد. كانوا يخدمون الإنسانية، لكنهم خلطوا بين الإنسانية وبين الجهة الحكومية التي يتقاضون منها رواتبهم. أثبت هؤلاء (وليس جميعهم بطبيعة الحال، بل أقصد أصحاب الحل والعقد فيهم) أن روح المسيحية لا تتعارض مع إشعال الحروب، أثبتوا أنه في وسع المرء أن يكون مسيحيًّا مخلصًا وقناصًا وقاتلًا من الدرجة الأولى في الوقت نفسه.

أرجو ألا تسيء فهمي، وألا تظنّ أبدًا أنني أرمي أفرادًا بعينهم بتهمة، كل ما أريده هو أضع يدي على الجُرح، لا أن أرمي أحدًا باتهامات. لم يعتَدْ أحد ذلك، إذ لم يعتَد الناس إلا الصراخ والشكوى وإشاعة الضغينة. إن الناس في أيامنا، ونحن الألمان مثلنا مثل غيرنا، لم تبرع إلا في فنّ واحد مُدمِّر، ألا وهو إدانة الآخر وتحميله المسؤولية، لندفع عن أنفسنا الإقرار بالذنب، وهذا هو ما أقف ضده بكل قوّة، وهو ما أرميه بكل التهم.

يقع على عاتقنا جميعًا الذنب نفسه دون تفرقة، ذنب هشاشة العقيدة، وذنب وحشية الرب الذي يحميه رجال السلطة، وذنب فقد القدرة على التفرقة بين الحرب والسلم، والتمييز بين الخير والشرّ. أنت وأنا مذنبان، القيصر والقسيس مذنبان، جميعنا مدنّسون بالذنب، مشاركون في الإثم، فلا نلومنّ إلا أنفسنا.

في أثناء بحثك عن السلوان، وعن إله أعظم، وعن عقيدة أسمى، ستدرك وسط عتمة الوحشة والقنوط المحيطَين بك أن النور لن يأتيك من الخارج، أقصد لن يأتيك ثانية من مصادر تقليدية رسمية، فلن يأتي من الكتاب المقدس، ولا من وعاظ المنابر ولا من القياصرة، بل لا ينبغي أن أكون أنا كفردٍ مصدر هذا النور.

لن تعثر على هذا النور إلا بداخلكَ أنت. النور كامن بداخلك أنت، هناك يسكن رب أسمى وأخلد من رب القومية الوطنية لسنة ١٩١٤، طالما أعلنت الحكمة الإنسانية على مدار الزمن عن وجوده. لن نعثر على الله في بطون الكتب، لأنه يسكن صدورنا لينير أبصارنا، وإلا صارت كل معرفة

تؤدي إليه مجرد علم لا ينفع. هذا الرب يسكن داخل قلوبكم، أنتم أيها المحطّمون اليائسون.

ليس مسكينًا من أعيّته آفات هذا العصر، وليس عاصيًا من كفر بأرباب الأمس، ولكن أنى لك أن تهرب من الأنبياء والواعظين الذين يقطعون عليك طريق البحث والسعي، طريق العودة إلى ذاتك؟

الأمّة الألمانية بأسرها تقف نفس موقفك اليوم، بل جميعنا. لقد تداعى عالمنا وانهار فخْرُنا بأنفسنا، ونفدَتْ أموالنا، وماتت سعادتنا. والآن نبحث، أو على الأقل أغلبنا لا يزال يبحث بالطريقة القديمة نفسها، عن الطرف المُخطئ الذي نحمّله كل الخطايا والذنوب في كل ما جرى. فندعوه تارة «أمريكا»، وندعوه تارة ثانية «كليمسنو»(21)، وتارة ثالثة القيصر فيلهلم، وهلُمَّ جرًّا، فندور حول أنفسنا مُحملين بالشكاوى والدعاوى، دون أن نبلغ غايتنا.

وكان يكفينا أن نتوقّف ولو ساعة واحدة عن طرح سؤال: على مَن يقع الذنب؟ ذلك السؤال الصبياني الأحمق، ونطرح عوضًا عنه الأسئلة التالية: وماذا عني أنا؟ إلى أيّ مدى يقع على عاتقي إثم ما جرى؟ في أي موقف كنتُ جعجاعًا صخّابًا؟ في أي موقف كنتُ صلفًا وقحًا؟ وفي أي موقف كنتُ رقيق الإيمان؟ وفي أي موقف كنتُ مجرد باحث عن الشهرة؟ أين يقبع ذلك الشرّ داخل قلبي الذي استمدتْ منه الصحافة السوداء شرعيتها، واستمد ذلك الإيمان المشوّه بالربّ القوميّ شرعيتَه؟

ليست لحظةً هيّنة تلك التي يسأل الإنسان فيها نفسه مثل هذه الأسئلة، لأنها لحظة يرى فيها الإنسان نفسه ضعيفًا، شرّيرًا، لحظة تصغر فيها نفسه، ويشعر فيها بقلّة حيلته وهوانه على الناس، لكنه لا يتحطم، بل يتنبّه إلى ألا وجود لعقدة الذنب.

فلا وجود للقيصر فيلهلم الشرير، ولا كليمسنو الشرّير، ولا وجود لثنائية الأمة الألمانية المنتصرة في مقابل الشعب البربري المهزوم. فثنائيات الإثم والبراءة، والحق والباطل، هي مجرد محاولات لتبسيط الأمور، ولا تعدو كونها مصطلحات صبيانية، وأُولى خطواتنا لكي نسلك الطريق إلى الرب الجديد أن نقبض على تلك الحقيقة.

صحيح أن تلك المعرفة لن تعلّمنا كيف نحاشى اندلاع الحروب، ولا كيف نستعيد ثروتنا المسلوبة، لكنها ستعلّمنا شيئًا واحدًا فقط، ألّا ننتظر إجابة عن أهم قضايا حياتنا من ربِّ الأمس، ولا مِن جنود الميدان، ولا مِن الصحافة، ليتخذوا قرارًا بشأنها، بل علينا أن نطرح على نفسنا سؤالًا، علينا أن نعقد النية على أن نتحوّل من صبية إلى رجال. قد يفسّر الناس لاحقًا أن نزع تلك الأدوات والمعدّات وفقْد أموالنا أشبه بطفل تُنتزَع منه أجمل ألعاب طفولته، فيغرق في البكاء والنحيب، لكنه ما يلبث أن يتوقّف عن البكاء ويصير رجلًا حقيقيًّا. ليس أمامنا سوى أن نسلك هذا الطريق، وعلى كلّ منا أن يتخذ هذه الخطوة داخل قلبه.

أما وإنك تحب نيتشه، أوصيك بقراءة الصفحات الأخيرة من كتاب

«تأملات في غير أوانها»، التي تعالج مسألة مزايا التاريخ ومساوئه. اقرأ الكتاب بعناية، كلمة كلمة، ثم أَعِدْ قراءة كلماته عن الشباب الذي لم يتوانَ لحظة عن كسر عنق الحضارة الزائفة المتهدّمة للعالم الذي نحيا فيه، ليشيّد حضارة أخرى جديدة.

ما أقسى مصير شاب اليوم وما أمرّ مصيره، وفي الوقت نفسه ما أعظم ما ينتظره وما أروعه!

هذا الشباب هو أنت، وأنتم أبناء اليوم، أبناء ألمانيا المحطّمة، وتحملون على عاتقكم ثقل هذه المسؤولية، وتحملون في قلوبكم هذه المهمة. ولكن أوصيك بألا تقف عند نيتشه، ولا عند سواه من الأنبياء أو الحُكماء.

ليست مهمتنا أن نلقن الشباب دروسًا، ولا أن نوفر عليهم مشقة السعي أو عناء بذل الجهد لاكتشاف الحقيقة، ولا أن نشير عليهم أي طريق يسلكون. مهمتنا أن نذكّرهم أن للكون ربًّا يحميه، وأن هذا الرب يسكن قلوبَهم، وأن عليهم البحث عنه، والتحدث إليه.

إلى كارل زيليج (خريف ١٩١٩ تقريبًا)

صديقي العزيز زيليج..

(....) ها أنت ذا قد مررت بظروف عصيبة ومزقتك أوجاع مبرحة، وتكتب إليَّ الآن لتخبرني أنك أدركت كيف يمكن أن يتحوَّل الإنسان إلى قاتل تحت ظروف بعينها. وحالي من حالك، فلستُ بأرجح منك عقلًا، فأنا مجرد إنسان معذَّب حائر، أرّقتني فكرة «القاتل» الساكن بين جوانحي طَوال الصيف الماضي، فحاولتُ نزع الفكرة من قلبي لبُرهة، من خلال طرحها داخل عمل أدبيّ مخيف وجسور(22).

أنت مشتّت بين قطبَين متنافرين، تميل إلى قطب تارة، ثم ما تلبث أن ترتد إلى القطب المقابل تارة أخرى. أما القطب الأول فهو الرغبة في القتل، وأما القطب المضاد فهو فطرة الخير والتسليم بتدابير القدر، وهو ما لمستُه في آخر لقاء لنا هنا. كلاهما ضروري، ورغم أني لا أتمنى لك أن تتجشم العناء والألم، لا أريد لك أيضًا أن تلزم قطبًا بعينه. فغريزة القتل تغلي وتفور داخل أعماق نفوسنا الناضحة بالدنس وبسواد العالم البدائي، في حين تسعى الفطرة الثانية إلى التطهر وإلى النقاء وإلى فعل الخير، ساعيةً في الوقت ذاته إلى تخفيف حدة الألم، وإلى الكذب وإخفاء عُسر الهضم النفسي.

لا أكتمك سرًّا لو أخبرتكَ إنني لا أعرف إن كنتُ قد وُفِّقتُ في التعبير عما أقصده أم لا، ما أقوله لك قد يربِكْ تفكيرك، لكنك حين زرتني في بيتي أدركتُ بعد حديثَين عابرين أن قلبك مسكون بفطرة خير سليمة وديعة

مخبوءة نتقبل الألم والمعاناة، وقد أحسستُ بهذه الفطرة الطيبة ووعيتها جيدًا.

لكني استشعرتُ فيك أيضًا عصبية ونزوعًا إلى العنف في موقفك إزاء بعض القضايا، كموقفك من أنصار المذهب التعبيري أو حاملي راية التجديد الأدبي مثلًا. عند هذه اللحظة خالجني شعور أن رد فعلك العنيف غير المتناغم مع سجيتك هو بالضبط ما يطلق عليه علماء النفس «الكبت الداخلي»، بمعنى أنك تخوض صراعًا داخليًا ضد نوازع الشر والشهوة والطغيان الساكنة داخلك، التي تأبى نفسُك قبولَها أو التنفيسَ عنها.

عزيزي كارل زيليج، الحال من بعضه، فأنا أيضًا أخوض صراعًا داخليًا لا ينقطع ضد فكرة القاتل، وضد فكرة البهيمية والوحشية، ضد فكرة المجرم، مثلما أصارع فكرة الأخلاقي المثالي، وفكرة الانسحاب الخفيف من معترك الحياة، وفكرة الهروب باستكانة إلى مشاعر الخير والنبل الأخلاقي والطهر.

لكن ينبغي للنفس الواحدة أن تضم التيارَين كليهما، فمن دون القاتل والمتوحش سنتحوّل إلى ملائكة لا رُوحَ فيها، ومن دون النزوع إلى تغيير ذواتنا، وإلى التطهّر الداخلي، والتخلّي عن عبادة الجسد، ونكران الذات، لن نعثر على ضالّتنا.

في الماضي، واقعًا تحت تأثير مباشر من الأسلاف الكبار، جوته وجوتفريد كِلر، وغيرهم من الشعراء، شيّدتُ لنفسي عالمًا رائقًا متناغمًا، وإن كان منسوجًا من خيوط الخيال، دفنتُ داخله وساوس الشروالسواد داخل

نفسي لتتعذب في هدوء، وزرعتُ فيه فقط نوازع الخير والورع والنقاء، كمرادف لما هو مقدّس. وقد أفضى بي ذلك إلى كتابة عملَين هما «بيتر كامينتسند» و«جيرترود» اللّذَين تجلّت فيهما جوانب حسن الطباع والأخلاق عبر آلاف من الحقائق والأمثلة. فما كان من هاتَين الروايتَين إلا أن زجّتا بي، على المستوى الشخصي والفني على حدٍّ سواء، إلى «فترة تقاعد» مرهقة، وإلى عالَم يخلو من الحياة، وإن كان لا يخلو من موسيقى عذبة.

وها أنا ذا اليوم حطام رجل سيصير كهلًا عما قريب، منحته الحياة أسباب الخير والنجاح، ثم سلبته الحب والزوجة والعائلة، ونزَعَتْ عنه ألوان المتع والمباهج. أقول لك إني أرى نفسي مهجورًا من الجميع بسبب موقفي من الحرب، أرى نفسي مريضًا، نصف مخبول، فلا أجد أمامي سبيلًا إلا الغوص في أعماقي، مُعيدًا ترتيب أوراقي، ومتأملًا ما سبق أن دفنته وخبأته داخل نفسي، أقصد مشاعر الفوضى والوحشية والبهيمية والشر.

الحقيقة أنني فقدت نغمة التوافق النفسي التي كنت وصلتُ إليها في ما مضي، واضطررتُ إلى البحث عن نغمة جديدة، وإلى خوض حرب دموية شرسة ضد نوازع النفس الوحشية البدائية التي تموج بداخلي، لا لأقتلع جذورها، بل لأقف على أسرارها جيدًا وأصوغها في قالب أدبي. منذ فترة طويلة لم أعد أُميِّز بين الخير والشر، بل صرت على يقين أن الحياة كلها خير، بما في ذلك ما نسميه نحن بالجريمة وبالدنس وبالأهوال. وقد كان دوستويفسكي على وعي بذلك أيضًا.

أكتفي بهذا القدر، فلا أريد أن أبعث في نفسك الملل. ولكن اسمح لي بكلمة واحدة: للقاتل الساكن داخل نفسك شقيق يسكن داخل نفسي، ولن تمكّن من القضاء على هذا القاتل إلا إذا أنصتَّ إلى صوته وأخليتَ له الساحة ليقول كلمته، لن تمكن من القضاء إليه إلا إذا حاولتَ فهمه.

في دنيا الواقع أو في عالم الأحلام، كلما استولت علينا رهبة من خيالاتنا - تلك الخيالات التي تصوّرنا مجرمين ووحوشًا- كنّا أقل عُرضة لخطر أن يؤذينا هذا الشرّ في عالم الواقع والحقيقة.

إلى كارل زيليج (تقريبًا خريف ١٩١٩)

صديقي العزيز زيليج..

نعم، اتبع قلبكَ ما دمتَ حيًّا، فهذا هو أفضل السبل لعيش الحياة، إذ لم يعد بمقدوري التمييز بين الخير والشر، وصرت أضع ثنائية الخير والخير محل شكّ وريبة. والإنسان الصالح هو من يخلق في نفسه توفقًا بين غرائزه وبين توْقِه إلى أن يعيش بوعي في الحياة، وإلا تحوّل إلى إنسان شرّير ذي خطر على الناس، ولا فرق إن كان هذا الإنسان بطل حرب أو ناسكًا في الصحراء.

فكرتي عن «التعبيريين» تقترب من فكرتك كثيرًا، غير أن وجهة نظري تشكّلت على نحو مختلف، فاحتياجاتي تختلف عن احتياجاتك. ليس الأمر عندي مقصورًا على شخص فرانتس فيرفيل أو إيهرينشتاين(23)، المحكّ عندي هو اندلاع ثورة في فن التعبير، وينبغي لي تحديد موقفي منها بـ«نعم» أو بـ«لا». أحسستُ أنّه قد يكون من الجُبن والكسل أن أقول «لا»، فقلت «نعم»، ارتأيتُ أنه من المحتّم أن أقول «نعم» للمذهب التعبيري (...).

جزيل الشكر على الأطر الثمانية الجديدة التي بعثت بها(24)، كنتُ في حاجة ماسّة إليها وسرّتني كثيرًا. ستُنشَر القصة التي أخبرتك عنها في العدد الجديد من مجلة «Vivos voco»(25)، كما سيُنشَر عمل أدبيّ ثانٍ في شهر ديسمبر في مجلة «Neue Rundschau»(26).

رسالة إلى ابنه برونو (زيوريخ، ٦ يونيو ١٩٢١)

عزيزي بوتسي(27)

غمرتني سعادة بالغة عما ذكرتَه عن مهامك الوظيفية الجديدة، وأدعو لك من كل قلبي بالتوفيق والسداد. تمر الآن يا برونو بأجمل سنوات عمرك وأفضل أيام حياتك بعدما نلتَ قسطًا من التعليم الأساسي في المدرسة، وآن الأوان كي تخوض غمار الحياة العملية. أحيانًا لا يكون العثور على الوظيفة المناسبة أمرًا هيِّنًا، فكثير من الشباب تتنازعهم الأهواء المتفرقة، فتأخذهم الحيرة أي مهنة يختارون، وقد لا يختلف حالك عنهم. لذلك، أودّ أن أهمس لك بالكلمة .التالية: مسألة اختيار المهنة مسألة في غاية الأهمية والخطورة حينما يمتلك الإنسان المهارة اللازمة لأداء هذه الوظيفة، لكنه لا يقتنص الفرصة لشغلها.

ومن هنا ينبغي لكل إنسان يجد في نفسه الرغبة، ويلمس في نفسه الاستعداد لأداء مهنةٍ ما، أن يغتنم الفرصة، حتى وإن عانى بعض الصعوبات في سبيل ذلك. أما من لم يتلقَّ تأهيلًا مناسبًا لأداء وظيفة، فيُقبِل على شغلها لمجرد شغل وظيفة، فعليه ألا يذهب إلى مهنة يكون مجبرًا على أدائها، ويكون شاعرًا بالنفور نحوها. الحقيقة أن أغلب من يشتغلون بالأعمال التجارية يمرّون بهذه التجربة، فهم يمتهنون التجارة لأنهم أُجبِروا على ذلك، لمجرد جني مزيد من المال، رغم سوء واضطراب أحوالهم النفسية وهم يمارسون الوظيفة. أفضل المهن وأجملها تلك التي يُعمَل فيها

الإنسانُ يديه، إذ لا تحتاج الأعمال اليدوية إلى مهارات خاصّة، فهي لا تتطلب منه سوى الرضا بأدائها والاهتمام اللازم لتعلّمها، وأن يأخذ المهنة على محمل الجد، وأن يتقن أداء عمله قدر استطاعته.

أتمنى لك وقتًا ممتعًا من أعماق قلبي، وتحياتي الحارّة للجميع في أوشفاند.

(28)

رسالة إلى فِلهلم كونتسِه (سبتمبر ١٩٢١)

عزيزي السيد كونتسِه..

وصلني خطابك، ولك خالص الشكر عليه، إلا أنني لن أتمكن من الحضور(29)، وليس اعتلال صحتي هو ما يحول بيني وبين السفر خلال فصل الشتاء فحسب، بل لأنني أريد أن أقطع طريقي بنفسي، وأن ألتفت إلى شؤوني أولًا، وألا يحيد بي الطريق عن مقصدي وغايتي، لا من خلال مناصبة العداء لأحد ولا الشعور بالوحدة، ولا من خلال التعاطف والمُعجبين.

يرى أغلب القُرّاء أن أعمالًا مثل كتاب «تجوال»(30) ما هي إلا قصائد رعوية غنائية، وموسيقى شعرية، لكنهم لا يعلمون شيئًا عما وراء الكواليس، لا يعلمون شيئًا عن التركيز والزهد كقدرٍ اخترتُه لنفسي، إذ لا يستطيع المرء منا حشد تركيزه وانتباهه ونفسه مذبذبة بين رغبة في العمل الشاق المتواصل ونزوعٍ غريزي إلى الاستمتاع بملذات الحياة. وسوف تفطن إلى مغزى كلامي متى قرأت كتابي القادم «سيدهارتا»(31).

من المؤكد أن كل ذلك نابع من قصور في شخصيتي، ومن المؤكد أن كل أفعالي نابعة من ذلك القصور ومن تلك المعاناة، لا من ثقة زائدة بالنفس كما يرى العامة في أدباء اليوم.

لا شك أنه سيكون من الأروع والأجمل والأرجح لو أنني جمعتُ بين أخذ

الأمور ببساطة وبين العمل المكثّف الهادئ والغرق في أحلام اليقظة في آنٍ، لكني لا أقوى على ذلك، ولستُ في سنٍّ تسمح لي بأداء أدوار لا تليق بي. يومًا ما ستكون قادرًا على فهم ذلك حق فهمه، وستتقبله بنفسٍ راضية.

سأقص عليك الآن بإيجاز واقعة لطيفة صغيرة جرتْ لي. في يومٍ من الأيام طرق باب منزلي في قريتي النائية رجل هندوسي رقيق بهي الطلعة، كان حكيمًا من حكماء البنغال، سمع عني. أتاني وأخبرني أن رؤيته رجلًا أوروبيًّا متشبّعًا بروح الحكمة الشرقية تشبعًا عميقًا مثلي مِن أروع وأجمل ما صادف من تجارب في حياته. بيد أن هذه الشهادة لم تأتني في وقت كنتُ أبحث فيه عن الحكمة الشرقية وأسعى جاهدًا وراءها، بل جاءتني الآن، أي في الوقت الذي لم تجذبني كثيرًا الحكمة الهندية أو الشرقية، وفي الوقت الذي صِرتُ فيه أرى أن تعاليم الحضارة الغربية وتاريخها لا تختلف كثيرًا عن تعاليم الحضارات الشرقية وتاريخها.

لكن كلامه بعث في نفسي فرحة عارمة، تبادلنا التحية وصِرنا بعدها صديقَين حميمَين.

أكتفي الآن بهذا القدر، ولكَ مني جزيل الشكر على دعوتك الكريمة في منزلك. لن أنسى دعوتك أبدًا.

تحياتي القلبية: هيرمان

رسالة إلى مُعلِّم شابّ (فبراير ١٩٢٢)

عثورك على مغزى في كتابي «تجوال»، يعني أنك أقرب إلى رؤيتي منك إلى رؤية رجل اللاهوت(32)، كما يعني أنك ستُهزَم على الأرجح أمام منطق رجل اللاهوت، فاللاهوت يتوسل دائمًا بالمناظرات الجدلية، وبالمحاورات، وبامتلاك الحقيقة المطلقة، بينما لا يلتفت الفريق المقابل إلى امتلاك الحقيقة المطلقة، أقصد فريق المجانين والأطفال، الفريق الذي يضم بين جناحيه لاوتسه والمسيح وغيرهما. وهذا صحيح. كنت أقصد تمامًا ما قلته عن الشاب العابث في شوارع باريس والناسك ساكن جبل مونت آتوس، لا أذكر تحديدًا في أي موضع قلت ذلك(33). ومنذ ذلك الحين لم يتغيّر رأيي (ربما ما قلته كان أكثر من مجرد رأي)، قصدت أن أقول إن إرادة الرب شاءت وجود كليهما، العابث والناسك سواءً بسواء، بينما يعتقد صديقك اللاهوتي أن الرب لا يقبل إلا الصالحين الذين من بينهم رجال اللاهوت، ويطرد من مملكته الطالحين الذين يزدرون رجال اللاهوت أو لا يقبلونهم.

من السهل أن تبرهن لصديقك على صحة كلامك بأدلة من العهد الجديد، فالمسيح نفسه لم يسلك هذا السلوك، ولا بوذا، ولا أيّ من كبار المعلِّمين وحكماء التاريخ فعل ذلك، والسبب أنّ محور تعاليمهم كان يدور حول إدراك وحدة الحياة الإنسانية، وحول إدراك تبدّل وتغيّر الأقنعة التي تطالعنا بها الحياة كل يوم. أدرك هؤلاء الحكماء ما عجز عن إدراكه رجال اللاهوت، أدركوا أنّ طالح اليوم قد يكون صالح الغد، وأن الرجل النبيل وكاهن

الكنيسة قد يتحولان إلى عشبة ضارة وإلى سُمٍّ زُعَاف.

وجه الشبه بين الراهب المتنسِّك والعابث المتهتِّك أن كليهما يحمل مشاعر طفولية مفعمة بالورع والبراءة يقف وراءها الله، وأن كل شيء مُقدَّر ومكتوب منذ الأزل، وأنّ سلوكنا الأخلاقي وآراءنا في الحياة لا تعبر بالضرورة عن جوهر قلوبنا، فالسلوك والآراء إنْ هي إلا أسماء ومظاهر، تكمن وراءها مشيئة سماوية.

يقول مفيستو في مسرحية «فاوست» لجوته إنه «ابن القوة التي تسعى دائمًا وراء الشر، لكنها لا تصنع إلا الخير». والعكس بالعكس أيضًا، فهناك عددٌ لا يُحصى مِن البشر يسعون دائمًا وراء الخير لكنهم لا يصنعون إلا الشر، ولا يعرفون إلا لغة العنف، ويُفقِرُون بصنيعهم مملكة الربّ الغنية. من بين هؤلاء الكهنة ورجال الدين. لكن صنيعهم ذلك لا ينبغي أن يُغرينا برفض «مملكة السماء» رفضًا مطلقًا والتقليل من شأنها، فقد شاءت إرادة الربّ وجود رجل الدين مثلما شاءت وجود المفكّر الحر والشاعر والحكيم والطفل، رجل الدين إنما هو تجلٍّ من تجليات الربّ، وثوبٌ من ثيابه التي يطلّ علينا بها. يبدو أن كلامي غريب، لكنه لا يصدر عن حِكمة مصدرها التأمُّل، بل يصدر عن تجارب حيّة عايشتُها، ويستحيل عليّ التعبير عنها أو إثباتها على نحو واضح.

لذلك أقول دائمًا إنه عند تضارب الآراء ينبغي على المتديِّن الدنيوي(34) أن يترك على الدوام دور الصالح ودور المنتصر لرجال اللاهوت أو لنوّابهم

الذين يزعمون تمثيل الحقيقة المطلقة.

أحكَم الناس من لا يسعى وراء إثبات وجهة نظره، بل من ينشد الحكمة ليستروِح نسيمَها، ويعيش عِبرَها، مثله في ذلك مثل الحكيم لاوتسه، الذي أدرك أن كل محاولات إفراغ الحكمة في قوالب جاهزة لن تخلق إلا الحماقة بعينها.

فالتقوى الحقيقة التي نملكها نحن المجانين، نحن «المتدينين الدنيويين»، هي إجلال المقدَّس السرمدي الذي لا يُمكن التعبير عنه. ونحن لا نزعم -على عكس رجال اللاهوت- أننا نقبض على الحِكمة والمعرفة الحقيقية، لأن صدورنا وعاء هذه الحكمة، وليس في مقدورنا صوغها في قوالب جامدة، بل ولا نرغب في ذلك، ولا نسعى إلى إثباتها بالأدلة، ولا الدفاع عنها في مساجلات كلامية، فالحكمة ليست موضوعًا للنقاش والجدل.

فإذا عثرتَ في أعمالي على ما يستميل قلبك، فستجد في نفسك نزوعًا تدريجيًّا إلى إدراك فكرة «الوحدة»، وستعثر على لاوتسه أو بوذا أو أي حكيم آخر (لا لتتخذه مرشدًا روحيًّا تبجّله إلى الأبد، بل كمحطة في حياتك، وكدليل روحي عابر)، عندها ستعيد قراءة الكتاب المقدس -وأقصد العهد الجديد- بعينَين مختلفتَين. عند هذه اللحظة لن يستطيع أي رجل دين إيقاعك في الحيرة والبلبلة، سيكون رجل الدين صديقًا تقدّره وتحبّه، لأنك ساعتها لن تفصلك عن الحقيقة المطلقة قيد أنملة.

رسالة إلى إدوارد شرودر (بازل، ٢٥ فبراير ١٩٢٤)

اسمح لي بأن أرد على رسالتك برد مقتضب، إذ أُضطَر يوميًا إلى الردّ على عدد كبير من الرسائل.

مقارنةً بفحوى خطابك فالقصائد التي بعثتَ بها لا يُستشف منها الكثير، ولم تكن القصائد ما دفعني للردّ عليك، بل خطابك نفسه. لا أظنّ أنك شاعر حقيقيّ. حتى وإن افترضنا ذلك، فالقصائد على صورتها الحالية ليست إلا خطوة أولى على طريق حياة روحية وعملية لم يكتمل معناها ولم يتشكّل مبناها.

أما سؤالك الذي أراه مهمًّا ومتألقًا فهو: هل ينبغي للإنسان دائمًا أن يتبع صوته الداخلي؟ بعبارة أخرى: هل كل ما يصدر عنا من انفعالات شخصية وذاتية ما هو إلا محض رعونة وطيش؟ أراه سؤالًا جديدًا مثيرًا للاهتمام. وقد طرحت إجابة عنه في روايتي «دميان»(35) على نحو مختلف عما قدمتُه في رواية «سيدهارتا».

فإذا طبقنا ذلك على سؤالك أستطيع أن أقول التالي: إنّ أسمى وأغلى غاية يمكنك أن تحققها في حياتك هي العودة إلى حظيرة إيمان دينيّ مُخلِص أصيل، مفعم بروح فردية متميّزة وناضجة، وهي رُوح لا يكتسبها المرء إلا بعد رحلة عناء مع القلق ومع الشكّ ومع الثورة على القديم.

لا شكّ عندي أن حضارة اليوم هي حضارة فقيرة الروح وتدعو إلى الرثاء،

وأن حياتنا في تدهور، وأن إنجازاتنا الفكرية والأخلاقية بلغت من الضآلة ما يجعل أي طريقة حياة أخرى تتسم بالإيمان والقوّة، كطريقة الحياة في العصور الوسطى مثلًا، ربما كانت أفضل وأنقى وأسمى مئات المرات مما نراه اليوم.

ولكن ماذا يجدي كلامي؟ لا شيء على الإطلاق، إنها مجرد كلمات أنطق بها، هراء، بالأحرى خطايا. فكل إنسان منّا يخوض غمار الحياة وفقًا لشكل العصر الذي يحيا فيه، وكل إنسان منا يجابه تحديات وصعوبات جديدة، صحيح أنها مؤقتة عابرة، لكنها رغم ذلك تمثل لنا مغزى الحياة بأسرها، وسبب ذلك أنها ليست مشكلات عامّة تشمل الجميع، بل مشكلات فردية تخصّ كل إنسان بعينه.

أودّ أن أقول إن هذه المشكلات والتحديات لم تُلقَ أمامنا لنحلّها ونتجاوزها، بل كي نخوض غمارها، لنعايشها معايشة حقيقية، وهذه المشكلات هي ثمرة المعاناة التي فرضها علينا القدر، وهي ثمرة ستنضج لاحقًا لتصير في النهاية حياة حقيقية، وسعادة، وتقديرًا لقيمة المعاناة في حياة الإنسان. ليس في مقدوري أن أقول المزيد، فأية كلمة أخرى ستكون لغوًا لا طائل من ورائه.

أرجوك ألا تبعث إليَّ بمزيد من الرسائل، فربما تساعدك كلماتي الموجزة، وربما تجد في رواية «سيدهارتا» عونًا وسندًا في هذه المرحلة العُمرية. وأي كلمات إضافية لن تجدي نفعًا.

المخلص/هيرمان

إلى ابنه برونو (أروسا، فندق Alpensonne - ٧ يناير ١٩٢٨)

عزيزي برونو..

كل ما تكتبه يهز أوتار قلبي، ولستَ في حاجة لأخبرك بتفهمي الكامل لما تعانيه من أزمات، ومن مشاعر يأس وقنوط. فقد ورثتَ ذلك عني، ومن أشبه أباه فما ظَلَم، والحياة صعبة دائمًا على أمثالنا من البشر، ولا شكّ أنك تعرف ذلك. ورغم ذلك فإنّ نفوسنا عامرة بما يفتقر إليه غيرنا، أقصد مَن وُلِدوا بفطرةٍ مقبلة على الحياة. أما نحن فنأخذ أنفسنا مأخذ الجد، لأننا ننشد أن نخلق لحياتنا مغزى، وأن نضع لها هدفًا ساميًا نبيلًا، ولا يوقفنا في سبيل ذلك شيء رغم ظلمات الحياة.

صحيح أني فُطرتُ على كتابة الأدب، لكنني لم أدخر جهدًا خلال عقود طويلة في مواصلة الكدّ والتدريب على تنقيح أسلوبي في الكتابة قبل أن أتمكن من إتقان حرفتي. وحتى هذه اللحظة لا تواتيني الجرأة على مقارنة نفسي بأساطين الأدباء وأقربهم إلى نفسي، فلست أرى نفسي في مرتبة واحدة مع جوته مثلًا أو أيشندورف، إذ أرى في غزارة أعمالهم الفنية العذبة، وفي براعتهم الأدبية الفائقة، غاية مستحيلة المنال.

لكن ما يواسينا ويخفّف عنا نحن الفنانين المبدعين أن لكلّ واحدٍ منا غاية رسمها لحياته، ومهمّة وضعها نُصْبَ عينيه، مهما كان متشككًا في قيمة نفسه، ومُستصغِرًا حجم موهبته وقدراته، وأنّ كلًّا منّا يؤدي تلك المهمة على أكمل وجه بقدر استطاعته، بشرط أن يكون وفيًّا لنفسه ولفنّه، وأن يؤدي ما عليه

أيًّا كان موقعه.

فإذا جلسنا أنت وأنا لنرسم مثلًا، وكنّا نرسم موضوعًا فنيًا واحدًا، فليس بالضرورة أن يرسم كل واحد منا لوحته بقدر حبّه للطبيعة، كما أن كلّ واحد منا يخلق أثرًا فنيًّا مغايرًا في لوحته، حتى وإن كان الموضوع الفني واحدًا. وحتى وإن لم نفلح سوى في التعبير عن مشاعر الحزن وعدم الرضا عما رسمناه، فهذا أيضًا لا يخلو من قيمة ومغزى.

أقول لك إنّ أكثر القصائد إحباطًا وكآبة، كقصائد الشاعر ليناو مثلًا (36)، لا تعدم هي الأخرى ثمرة حلوة المذاق رغم إغراقها في السوداوية، بل إن كثيرًا من الرسامين الذين يُنظر إليهم كفنّانين من الدرجة الثانية أو برابرة، برهنتْ أعمالهم بمرور الأيام على قدرة فنية عالية، كما يجد تلامذتهم فيهم سلونًا، ويشغفون بلوحاتهم شغفًا يفوق بكثيرٍ أعمالَ كبار الرّسامين الكلاسيكيين.

وهكذا، ولدي الحبيب، فأنت وأنا شريكان في عمل واحد، وهذه فكرة قديمة قِدَم العالَم نفسه، وينبغي لنا أن نؤمن وأن نثق أن الله يقصد أن يقول شيئًا بعينه لكل واحد منا، وأنه يروم غاية ما من وجود كل واحد منا، وهي غاية قد لا نستطيع معرفتها أبدًا ولا الشعور بها.

ناهيك بذلك، وباستثناء السعادة الممزوجة بالمشقّة التي يخلقها لنا الفن (أو التفكير)، فلدينا أفضل ما يمكن أن يواسي المرء في حياته، وهو أننا يحب بعضنا بعضًا.

رغم أني لا أحب لك أن تتجشّمَ مشقة المعاناة الرُّوحية، لكني في الوقت ذاته سعيد أن لديّ ابنًا وتوأمًا روحيًّا يشعر بما أشعر به، ويعاني مما أعاني منه. الأهمّ عندي من ذلك كلّه أن أراك تعود إلى حضن أبيك من جديد، وأن أرى فيك رفيقًا روحيًّا.

رغم انفصالنا ورغم أنني لم أعُد أمثّل إليك الكثير، لكني لا أخفي سعادتي البالغة حينما تقرأ أحد أعمالي، فتشعر بوجودي في حياتك، وتمثّلني فيها.

ابني العزيز.. سيُكتب لأعمالي الأدبية النجاح لو كنتَ واحدًا من قرّائها المحبين المتعاطفين، ولو احتفظتَ بشيء منها لديك دائمًا، فطالما داخلني اليأس .والإحباط من ألا تكون لهذه الأعمال غاية أو مغزى يضيف جديدًا.

برونو.. أستودعك الله، ولا أنسى أن أشكرك أيضًا على الصورة الرقيقة التي أرفقتها بخطابك، فقد راقت لي كثيرًا.

حتى لو تنكّرَتْ لنا الدنيا وأدارت لنا ظهرها، ووضعتنا في مرمى ضرباتها الساخنة، فسيكون في مقدور كلينا، أنت وأنا، أن يفهم بعضُنا بعضًا، وأن يحب بعضُنا بعضًا، وأن يُهدي كل منا أعماله إلى الآخر. فلدينا كثير مما يفرح قلوبنا، ما دمت أنا على قيد الحياة.

استمتع بحياتك كأفضل ما يكون.

أرقّ الأمنيات وأصدق التحيات القلبية.

والدك

إلى شخص مجهول (١٩٢٩)

(...) اسمح لي بكلمة قصيرة حول رؤيتك لروايتي «ذئب الأحراش». ترى أن الرواية ما هي إلا تصوير ليأس الإنسان وإحباطه في عالم اليوم، وأنت بذلك لم ترَ إلا وحدة البطل الموحشة ومعاناته الروحية، فتأذّتْ نفسك، وشعرتَ بالإشفاق على حالته، لكنك أغفلت قلب الرواية ورُوحها، أغفلت الجانب الإيجابي لشخصية البطل وأفكاره، واعترافاته الصريحة قوية النبرة.

صحيح أن رواية «ذئب الأحراش» ليست من أنصار السينما الحديثة، ولا الرياضة، ولا التفاؤل بمفهوم الحياة الحديثة (التي يستشعر البطل من ورائها اندلاع الحرب المقبلة)، إلا أن الرواية مؤمنة أشد الإيمان بموسيقى موتزارت، وبالخلود، وبأطوار الحياة الروحية، ومؤمنة بوجود مغزى للحياة يتجاوز مدارك البشر. حينما كتبتُ رواية «بيتر كامينتسيند» قبل إحدى وعشرين سنة، كان التفاؤل الذي دافعت عنه بقوّةٍ نسبية في ذلك الوقت طبيعيًّا تمامًا مثلما أدافع عن التشاؤم في رواية «ذئب الأحراش».

إلى السيد ب.ب. (نوفمبر ١٩٣٠)

لا أعرف إن كنتَ ستصير شاعرًا جيّدًا أم لا، فلا يوجد في زماننا شاعر أصغر منك سنًّا وأنت في السابعة عشرة من عمرك. ثمّة فرق هائل بين أن تولَد بموهبة شعرية فطرية وبين أن تصنع من هذه الموهبة شيئًا حقيقيًّا لتقول عبرها شيئًا ذا قيمة، ذلك أن تحقيق هذه الغاية لا يمت إلى الموهبة بِصِلة.

الأمر مرهون بمدى قدرتك على أن تأخذ نفسك وحياتك مأخذ الجدّ، وبمدى قدرتك على أن تعيش حياة صادقة خالية من الزيف، وأن تقاوم إغراءات الحياة التي تغويك بالانحراف عن الطريق الذي رسمته لنفسك.

باختصار، الأمر مرهون بمدى قدرتك على العمل والتضحية وبذل النفس. لكن لا تنتظر من العالم أن يكافئك بردّ الجميل، ولا أن يكون ممتنًّا على صنيعك. كما أنصحك بأن تهجر فكرة الأدب تمامًا إن لم تكن مسكونًا بها، وإن لم يكن الموت أهون عندك من التخلي عن إبداعك الأدبي.

هواجسك حول المسائل التي طرحتها في خطابكَ وتؤرق بالك الآن، لا محل لها من الصحة، فهي هواجس طبيعية ومفهومة لمن هم في مثل سنّك. فإذا لم تستطع تجاوزها في غضون بضع سنوات فعليك الاتجاه إلى طريق الصحافة، والتخلي عن فكرة الأدب. فالتفكير العاقل والكلام الموزون لا يمتّ إلى الأدب والفنّ بِصِلة.

أفضل الأمنيات، على أمل أن تكتب إليّ من جديد في السنوات القادمة.

رسالة إلى شابّ لم يُصرّح باسمه (صيف ١٩٣١)

وصلني خطابك، وهو يشبه كثيرًا من الخطابات التي تصلني يوميًا، مثال حي على موقف أبناء جيلك: استهتار بكل القيم سببه عدم تحمّل المسؤولية، وإحباط عميق سببه النزوع إلى المذهب الفوضوي. ولا أملك دواءً شافيًا لذلك، فافتقاركم إلى قيم الاحترام والهمّة في العمل والرغبة في تطوير الشخصية سيؤدي لا محالة إلى مزيد من الحروب والكوارث. لا أظن أن ممارسة رياضة الملاكمة والتجديف ستعوّض أبدًا دور الدين ودور الثقافة في الحياة.

ليس لكم من الأمر شيء، صحيح أنتم ضحايا هذا العصر، لكن ذلك ليس مسوغًا للتمادي والإصرار على موقفكم. فإن لم تكونوا قادرين على أخذ شيء في الحياة محمل الجدّ فعليكم على الأقل أن تأخذوا أنفسكم محمل الجدّ، وإلا صارت حياتكم فارغةً من أي قيمة أو غاية. أقول لكم: مغزى حياتكم وقيمتها مرهون بما تضفون على هذه الحياة من قيمة وغاية.

إلى ابنه مارتن (مايو ١٩٣١)

عزيزي مارتن(37)..

(...) لشدّ ما أثار اهتمامي حديثك عن الفن والتعليم، إلخ. وستعثر في ثنايا محاضرات كاندينسكي، وكذلك في محاضرات بعض رفاقك، على شيء من

الحكمة والبصيرة الروحية القادرة على التعبير عن كل شيء تعبيرًا مذهلًا، والإجابة عن كل المسائل الإنسانية والحضارية إجابة وافية.

قد ينتابك شعور أحيانًا أنك لم تحظَ بقدرٍ كافٍ من التعليم، لكنك ستكتشف أنّك لم تفقد كثيرًا، فطلاقة اللسان في الحديث عن كل شيء ليست في أغلب الأحوال دليلًا قويًّا على حصول المرء على تعليم جيّد كما يبدو لنا ظاهريًّا، ولا تتمّ عن معرفة راسخة حقيقية، بل هي على الأرجح لون من التمثيليات الاجتماعية أو الرياضات الروحية، وقد يستطيع المرء أن يعيش دون هذه التمثيليات والرياضات حياة طيبة، وربما حياة أفضل.

أما ما ينقصك من تعليم حقيقي، ومن سعة اطلاع، وإلمام بالتاريخ، إلخ، ففي مقدورك تحصيله تحصيلًا تدريجيًّا دون عجلة، إذا لا تحتاج سوى إلى مداومة القراءة المتبحرة، وإعادة النظر في ما قرأت، وخصوصًا في الموضوعات التي تجذب انتباهك.

في حداثة سنّي ورغم سعة اطلاعي، طالما كنتُ أتحدّث إلى الآخرين حول الرسم أو الموسيقى أو الفلسفة بمنتهى التواضع والحذر، مستشعرًا الحرج البالغ في أثناء حديثي، ثم اكتشفتُ مع مرور الوقت أنني لا أحتاج إلى أن آخذ مسألة «تمثيلية التعليم» مأخذ الجدّ أبدًا. فقد تحاشيت واعيًا وقاصدًا التحدث عن هذه الموضوعات في حضور الناس، رغم أنني لم أكن أستطيع على الدوام الهروب من معارفي. ومتى تحدّث إليَّ شخص أعرفه معرفة جيدة حديثًا باهرًا حول مسائل عامة، كنتُ أصغي إليه جيدًا، مترقبًا

إن كان شيء من كلامه سيؤثّر في نفسي، لكن ذلك لم يكن يحدث.

وعندما كان يتحدث أحدهم أمامي عن شيء يعرفه ويحبّه، كأن يتحدث فلاح عن أبقاره، أو عامل يدوي عن ورشته، أو فنان عن لوحاته وأسلوبه في الحياة، كنتُ أحبّ الإنصات إلى حديثه، وكنتُ أفيد منه أشدّ الإفادة في أغلب الأحيان.

إلى ابنه هاينر (١٠ يوليو ١٩٣٢)

عزيزي هاينر..

(...) أتفق مع كلامك تمامًا حول بعض الشيوعيين الذين برهنت التجارب أنهم رفاق طيّبون في الحياة العادية، وعلى استعداد لبذل العون والمساعدة، شجعان، يُؤْثِرون غيرهم على أنفسهم.

لديّ بعض الأصدقاء الشيوعيين، من بينهم من أشرتَ إليهم، لكن خصالهم تلك لا علاقة لها بالحزب ولا بالأفكار التي يعتنقونها، فلا علاقة بين كون الإنسان طيبًا أو شريرًا وبين انضوائه تحت راية أي حزب أو اعتناق عقيدة سياسية بعينها. وهذه سُنّة الحياة، التي لا تقبل الجدل.

من ناحية أخرى، يقتضي اعتناق المذهب الشيوعي من صاحبه -إن كان يرجو لنفسه نقدًا ذاتيًا حقيقيًا- أن يسائل نفسَه: «هل أريد إشعال الثورة حقًّا؟ وهل أسوّغ نشوبها؟ هل سيرضيني اقتتال طائفة من البشر لا لشيء إلا لتحظى طائفة أخرى بفرصة أفضل نسبيًا في الحياة؟». هنا بيت القصيد.

بالنسبة إلى رجل مثلي اصطلى بنيران الحرب العالمية، وكان على شفا حفرة من اليأس، لجواب السؤال قولًا واحدًا وإلى الأبد: «لن أؤيد أبدًا إشعال الثورات ولا الاقتتال بين البشر»، لكن موقفي لن يمنعني من إعفاء اللوم ممن يقاتلون في بقعة ما من العالم، وينفجرون تحت نير الغضب، وتحت شدّة الفقر والحاجة. ولكني في الوقت ذاته لن أستطيع إبراء ساحتي إذا ما شاركتُ في مثل هذه الثورات، لأنني بذلك سأكون قد خُنت المبادئ الأساسية التي أومن بها.

ذكرتَ في خطابك كلمة مستني من الأعماق، لما وصفت حالتك الساخطة، اللامبالية، المُبغِضة لكل شيء، بـ«المرض». لقد أصبت شيئًا من الحقيقة بهذا التعبير، ولا ضير أن عددًا لا يحصى من أبناء جيلك مصابون بالمرض نفسه. فكّرتُ ذات مرّة بعد تخرّجك وعقب عودتك إلى زيوريخ أن إصابة والدتك باضطراب عقلي(38) فضلًا عن أوضاعنا العائلية الفاجعة كانا سببين مباشرَين في سلوكك العدواني تجاهي وتجاه الحياة بوجه عام، وخطر بذهني أنكَ وقعت فريسة اضطراب نفسيّ، شَعُرتَ على أثره كمن أُلقي به وسط غرباء. فكّرتُ ساعتها أيضًا في إرسالك إلى د. لان(39) لتلقّي العلاج النفسي، معتقدًا أن ذلك قد يعود عليك بالفائدة وتحسّن الأمور، إلا أنك لم تكترث للأمر. وكنتُ قد صرفتُ عن ذهني نهائيًّا فكرة إجبارك على أداء أي فعل ضد رغبتك

لكنّ أحدًا تقريبًا لا يخلو من هذه «الأمراض»، أو بتعبير آخر من هذه

«الندوب الروحية» التي خلّفتها سنوات الشباب. إلى جانب ذلك ثمّة وسائل أخرى لعلاج هذه الأمراض بخلاف وسائل العلاج النفسي، فالدين مثلًا وسيلة ناجعة من وسائل العلاج، كما أن أي بديل للدين، كالانضمام إلى حزب مثلًا، هو وسيلة أيضًا من وسائل العلاج.

لا أعلم أي طريق عليك أن تسلك، فبداية طريقك هناك، حيثما تعثر على أبسط التزامات الحياة وأقربها إلى نفسك، وفي حالتك تحمّل المسؤولية والعناية بزوجة وطفل.

لا أرى في نفسي إلا رجلًا «أشد مرضًا»، وإنسانًا غريب الأطوار أكثر منك، وطالما صادفتُ صعوبات بالغة في العثور على معنى لحياتي أو تحقيق الرضا عنها، لكني وجدت شيئًا من المعنى ومن الرضا في الفنّ وفي العمل بضميرٍ جادّ ومخلص. كان من المهمّ بالنسبة إلي أيضًا أن أكرس بعضًا من وقتي للعناية ببعض الأشخاص، وأن أكون مسؤولًا عن بعض الأشخاص، كما أنا مهموم بتحمّل مسؤولية نفسي.

وهكذا مضَت الأمور بين نجاح وإخفاق، لم تكن الحياة كلّها وردية، لكنها كانت «ماشية» (...).

..هاينر.. تحياتي القلبية Addio(40)

بابا

رسالة إلى مراهق (١٩٣٢)

(....) أنت شاب حديث السن تسألني عن واجباتك، وتسألني هل يحق لك أن تلتفت إلى نفسك فقط، عوضًا عن الاهتمام بالمصلحة العامة والوطن. سيكون ردّي على سؤالك خلافًا للرائج حاليًّا قولًا واحدًا: واجبك الحقيقي في هذه الحياة هو أن تصير إنسانًا بمعنى الكلمة، أقصد إنسانًا نافعًا، محبًّا للخير، واعيًا بقدراته في الحياة قدر الإمكان. واجبك الحقيقي هو أن تنمي شخصيتك المستقلّة، وأن تخلق ذاتك الواعية، لا أكثرولا أقل. ومتى حققت ذلك الهدف وفقًا لمقتضيات الظروف فسوف تدرك الواجبات الحقيقية من تلقاء نفسك.

ثمة عادة دارجة في ألمانيا تقضي بأن يؤتى بالأطفال الذين لما يتعلموا القراءة بعد، أقول يؤتى بهم ثم يُلبسون سترات أو قبعات، ويقدّمون كأعضاء في أحد الأحزاب السياسية المشاركة في الحياة العامة، فما يلبث هؤلاء الأطفال أن يصرخوا، مستخفّين بوطنهم، صانعين من أنفسهم ومن الشعب الألماني أضحوكة العالم، ويصير كل طفل منهم مجرم دولة حقيقيًّا، فالمطلوب منهم أن يصير كل طفل شيئًا، أن يتعلّم شيئًا ما، أن يصبح كيانًا، رجلًا، وأن يتعلّم التفكير باستقلالية، أن يتعثّر ويخطئ، أن يؤدي واجبات تفوق سنّه ولا تخصّه على الإطلاق.

سيقود ألمانيا سنة ١٩٥٠ حفنة من الرجال الذين لا يزالون اليوم في طور المراهقة، رجال لم يعيشوا هذه التجربة المدوّخة التي أخبرتك بها في الفقرة

السابقة، رجال كان أكبر همّهم بناء شخصيتهم في هدوء وصمت.

لقد استرسلتُ في الحديث. تدبّر ما قلتُه جيدًا، ولا تبعث إليّ بمزيد من الرسائل، فلن أستطيع الردّ عليها ولا أن أقول أكثر مما قلته.

إلى إرنست روجاش (منتصف فبراير ١٩٣٣)

يكشف خطابك عن حالة ضيق ويأس، وردّي عن خطابك بإيجاز: اصبِرْ نفسك، ولا تفر تاركًا الساحة مكتفيًا بالبوح عما يجيش في صدرك. خُضْ غمار التجرِبة.

لشدّ ما يؤسفني أن أسمع منك أن بعض كلماتي (ولا أعرف أيَّها تحديدًا) كان سببًا في تثبيط عزمك. قد ترى في شخصي رجلًا أقوى مما أنا عليه في الواقع، لكني لا أرى لنفسي فضلًا عليك ولا ميزة، بل يعتريني الآن يأس شبيه بما انتابك.

ميزتي الوحيدة هي أنني أكبر منك سنًّا، علّمتني تجرِبة الحياة الطويلة أن وراء كل معاناة شخصية تكمن حكمة سماوية إلهية، تشرق من ورائها أنوار الحقيقة، وتبرز من بين جنباتها حياة جديرة بأن تُعاش.

وقد يتيسر لي أن أقبض على قبسٍ من نور الحقيقة تارة، وأن تتسرب بين يدي تارة أخرى، وهذه هي حكمة الأقدار. صحيح أننا كبشر لا نرضى بالمكتوب، لكن ينبغي ألا نأخذ هذه المعاناة بصفة شخصية، ولا أن نعدّها سهمًا موجهًا إلى صدر إلى واحد بعينه.

ليس عندي المزيد كي أقوله ردًّا على خطابك.

إلى ابنه هاينر (خريف ١٩٣٣)

عزيزي هاينر..

(...) أرجو ألا يضيق صدرك بملاحظاتي حول عَلاقتك بالمال، كما أني أتفهم تمامًا رؤية الشباب المثالية المُزدرية لقيمة المال. لكن اعلم أنّ المال - بحسب معايير المجتمع الراهنة، وخلافًا لكونه قوّة عمياء شريرة- مرادف لشيء آخر، المال هو ثمرة مركّزة للعمل والحرمان والادخار والالتزام بنمط معيّن في الحياة.

لذلك تلاحظ دائمًا حساسية الأب الحريص على ادخار المال بدأب وحرص، إزاء إيماءات أطفاله المحتقرة للمال. وهذه الملاحظات لا تعدو كونها أمورًا صغيرة، وإشارات عابرة.

سأضرب لك مثلًا: لم أفهم كيف تشكو افتقارك إلى قروشٍ قليلة لشراء أوراق الرسم والأقلام والألوان، بينما تستأجر في الوقت نفسه مرسمًا باهظ الثمن لمدة شهور طويلة! أو كيف تقوم برحلة بحرية في أسكونا(41) لمدة شهرين كاملَين، تاركًا «الأتيلييه» المؤجَّر في زيوريخ طَوال هذه الفترة خاليًا! أو لماذا لا تردّ على خطاباتك الواردة إليك في زيوريخ، لربما كان فيها طلب رسم لوحة جديدة مثلًا! أو لماذا أتلقّي اليوم خطابَين من جهة واحدة، خطابًا منكَ وآخَر منفصلًا من والدتك هيلين(42)، مما يعني دفع رسوم

دمغة البريد مرّتين! لا شكّ أنّك تراها أمورًا تافهة لا تستحقّ النقاش، ربما سبب ذلك الاعتقاد أنك لم تقاسِ في سنوات شبابك مرارة الركض وراء لقمة العيش كما تجرّعتها وأنا في سنّ متقدمة، لا في سنّ صغيرة مثلك.

ولدي، بمرور الوقت يعتاد المرء على النظر إلى المال نظرة مختلفة. وربما هذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أقدم يد العون إلى بعض الزملاء رقيقي الحال حتى في ذروة سنوات الضنك، وقد وُفّقت إلى ذلك لأنني وفّرت على نفسي أي نفقات كمالية زادًا لوقت الحاجة.

ليس في ذهني أبدًا أن تأخذ كلامي على محمل الوعظ والإرشاد، بل لا أظنه قد يجدي معك نفعًا. أعلم أننا لا نستطيع تغيير طباع البشر، ولا أسعى من وراء رسالتي بأي حال أن أعيد تربيتك من جديد، كل ما أتمناه أن تفهم مقصدي.

يسرني أن تطلعني على شيء من أحوالك وهمومك بعد انقطاع أخبارك لفترة طويلة. سوف نعاود الحديث متى التقينا في مدينة بادن(43)، وسأسعى لمساعدتك للحصول على فرصة عمل.

تحياتي القلبية لك ولهيلين أيضًا.

والدك

إلى بيتر فايس (مطلع إبريل ١٩٣٩)

عزيزي السيد فايس(44)..

جزيل الشكر على خطابك(45). أتفهم جيدًا ما مررتَ به، ولكن اعلم شيئًا واحدًا: لا تنظر إلى ما حدث باعتباره شيئًا نهائيًّا غير قابل للتغير. حينما كنتُ في سنك اضطررت على مدار خمس سنوات أو ستٍّ إلى الوقوف ساعات طويلة من الصباح الباكر وحتى المساء في إحدى المكتبات، أبيع الكتّاب للناس أو أحرّر لهم الفواتير. كنتُ أحيانًا أمنّي نفسي بتغيير في حياتي، وفي أحيانٍ أخرى أفقد الإيمان، ولا أرى بادرة أمل في التغيير لأحيا حياةً توافق ميولي وموهبتي.

أقول لك: واصل السير في طريقك المفروض عليك، ولكن لا تغفل الاحتفاظ بحقّك في الاستفادة بكل ما يجود بك عليك هذا الطريق من مال أو استقلالية في الحياة، كما كان الحال معك دائمًا.

ذكراك الطيبة لا تبرحنا أبدًا، وأصدق الأمنيات دائمًا لك. أما عندنا فالهموم كل يوم في ازدياد، ويبدو أن شقيقة زوجتي على وشك الهروب هي الأخرى(46).

أخيرًا تمكّنت زوجتي اليوم -بعد أن كادت تلغي سفرها في الساعات الأخيرة- من القيام بإجازة بعد هذا العام السيئ.

أما عني فلا يكاد يخلو يوم من آلام روماتويد المفاصل وآلام العينَين، بينما يلتهم الرد على رسائل القرّاء والأصدقاء ما يتبقى لي يومياً للعمل والكتابة.

أصبتَ عين الحق في ما أشرتَ إليه، فالأفضل للمرء أن يكسب قوت يومه من مهنة أخرى غير الفنّ والأدب، بدلًا من أن يشقّ طريقًا مائعًا بين تحقيق النجاح في عالم الفن والأدب والنجاح الماديّ.

أُبلغكَ تحيات زوجتي نينون.

ها هو ذا بيتنا يغص يوميًا بالضيوف والزائرين ونحن على أبواب عيد الفصح.

تحياتي القلبية

إلى ابنه مارتن (بادن، مطلع ديسمبر ١٩٤٣)

عزيزي مارتن..

قضيت اليوم وقتًا ممتعًا. كانت الرابعة ظهرًا، وكنت مضطجعًا آنذلك في فراشي منتظرًا نينون(47)، التي كانت تعود إلى البيت في هذه الساعة من كل يوم. لما عادت أخبرتني أنها قابلت في القطار ماكس فاسمِر(48) وزوجته ولويز مولليه(49)، وكانوا في طريقهم لزيارتي زيارة سريعة. غادرتُ فراشي، وجلسنا نحن الخمسة بالطابق الأسفل نحو ساعةٍ، ثمّ انصرف الضيوف للحاق بموعد القطار، وبقيت نينون معي حتى السابعة مساءً، لحضور محاضرة علمية تُعقد في زيوريخ. وهكذا تبقّى لي شيء من الوقت حتى موعد تناول العشاء لأكتب إليك هذه السطور.

تكشف العبارة التي صدّرتُ بها كتابي الجديد الضخم(50) عن مضمون العمل والغرض منه، والعبارة مدوّنة بأحرف ألمانية ولاتينية في صدر الكتاب.

يسعى الاستهلال إلى رسم عالَم لا وجود له لكنه ممكن الوجود، وإلى تصوير عالَم معدوم لكن يُرجى وجوده كما لو كان شيئًا حقيقيًّا، وكأن الاستهلال يمكّن فكرة الكتاب من أن تخطو خطوة إلى الأمام كي تطأ الفكرة أرض الواقع.

أضف إلى ذلك أنني لم أقتبس العبارة عن أحد علماء القرون الوسطى (مع أن ذلك وارد)، بل ألَّفتُها بنفسي، وكتبتها بحروف ألمانية، ثمّ تفضل صديقي د. شالّ(51) -الذي وافته المنية مؤخرًا- بترجمتها إلى اللغة اللاتينية(52).

وطَوال ما يزيد على إحدى عشرة سنة، وهي فترة كتابة رواية «لعبة الكريات الزجاجية»، لم تكن الرواية مجرد فكرة ولا لعبة ذهنية ابتكرتُها، بل كانت درعًا واقيًا ضد الأوقات العصيبة التي مررتُ بها، وملاذًا سحريًّا آوي إليه لساعات طويلة متى تهيأ ذهني، كما كانت حصنًا منيعًا لا تقوى أصوات العالم الخارجي على اختراقه.

أعترف أنني حملتُ نفسي فوق طاقتها لما أوقفتُ حياتي ورهنتُ مصير أعمالي بقرار من دار «زروكامب/برلين» للنشر، ثمّ من زواجي بنمساوية يهودية الأصل، لكني وجدتُ في مئات الساعات التي أنفقتها عاكفًا على تأليف رواية «لعبة الكريات الزجاجية»، أقول وجدتُ فيها عالمًا نقيًّا أشدّ

ما يكون النقاء، حُرًّا أكمل ما تكون الحرية، عالمًا يفيض بالحركة والنشاط استطعتُ أن أعيش داخله.

ولا أروع من أني فرغت من تأليف الكتاب قبل سنتَين تقريبًا، أي قبل أن تخور قدراتي الذهنية. لقد أنهيتُ العمل في اللحظة المناسبة، لتصلح الرواية ما أفسدَته حماقاتي في الحياة.

أتوقّع أن يمرّ شقيقك برونو بنا يوم الأحد المقبل. بينما كان هاينر عندي يوم الاثنين في زيارة خاطفة، لم تزد على ساعة ونصف الساعة، لكنها كانت زيارة ممتعة.

تحياتي الحارّة

والدك

إلى ألبرشت جوس (١٩٤٤)

لا شيء يمنع من استكمال رواية «لعبة الكريات الزجاجية» في جزءٍ ثانٍ، بغرض مواصلة تصوير الأثر السام لفقدان الإنسان ثقته بنفسه. عندها سنكون أمام نمطَين من البشر: أولئك المستعدين المؤهلين للانخراط في خدمة العالم مثل يوزيف كنيشت(53)، وأولئك الذين يواصلون انتقاد إقليم كاستاليا على الدوام(54)، لكنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها مثل «القواقع الملتصقة» بالأشجار.

بالنسبة إلى النقد الموجَّه إلى الرواية، في ظني أن نقطتين جانَبهما الصواب، فبدلًا من محاولة فهم قواعد لعبة الكريات الزجاجة، التي لا يُمكن فهم الرواية دونها، ينظر بعض القراء إلى العمل نظرة المدينة الفاضلة جملًا وتفصيلًا، غافلين عن حقيقة أنّ الدولة الاشتراكية قد ادعت لنفسها حقوق بناء المدينة الفاضلة قبل عدة أجيال. على أن الحياة في كاستاليا أكثر اقترابًا من الصواب، وأكثر تحقيقًا لمفهوم العدالة الاجتماعية، وأصدق تبشيرًا بالفردوس الحقيقي، هذه واحدة. أما المأخذ الثاني الذي يصطدم به كثير من القُراء فهو موت يوزيف كنيشت، إذ يرى هؤلاء أن الموت خطفه قبل الأوان، وأنني بخلتُ على القُرّاء بتصوير تأثيره في العالم وفي الحياة، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار أن روايتي لم تسعَ نحو رسم الحياة وتصويرها، ولا طريقة التربية في عالمنا الواقعي، بل داخل إقليم كاستاليا وداخل لعبة الكريات الزجاجية.

أما النقطة الثانية فهي قولهم إن موت يوزيف كنيشت جاء بضربة قدر مفاجئة، دون أن يتنبّهوا إلى أن العكس هو الصحيح، فتضحية كنيشت بحياته هي تضحية «صانع المطر»(55).

ربما لم يحالفني الحظّ في التعبير عما أردتُ قوله تعبيرًا واضحًا. ليس أمامي سوى أن أترك الرواية على حالها.

تحياتي

رسالة إلى تلميذ (ديسمبر ١٩٤٤)

عزيزي...

لستُ الآن في حالة تسمح لي بالردّ على الخطابات ردًّا وافيًا، فقد تقدّمتُ في العمر وصحّتي معتلّة، كما أن خطابك لا يحوي ما يحفّزني على الردّ، إذ لا ألمح فيه شيئًا محدّدًا تبحث عنه، وقد لا تعلم أنت شخصيًّا ما تبحث عنه، لكني بعد إعادة قراءة الخطاب تولّد لديَّ انطباع أنك لم تضل الطريق.

في ما يتصل بموضوع الكتب والقراءة، ينبغي للإنسان بالطبع أن يفرق بين ما يُقرأ لأغراض الدرس والتعليم، وبين الاطلاع الشخصيّ الحر. وفي ما يخص الاطلاع الحرّ أنصحك ألا تُجبِر نفسك على قراءة ما لا يبوح بمكنونه أمامك من تلقاء نفسه. واعلم أن لكل مرحلة سِنّية احتياجاتها، وأن لكل طور من أطوار الحياة قوانينه. حينما كنتُ في مثل سنّك كانت رواية «آلام الفتى فيرتر» لجوته أحبّ إلى قلبي من رواية «الأنساب المختارة» مثلًا، أما اليوم فالعكس صحيح.

سأرفق طيّ خطابي إليك مقالة كتبتها ذات مرة عن القراءة، وبما أنك أخبرتني بحبك لقراءة الشعر فسأرفق لك مجموعة قصائد شعرية جديدة (56).

تحياتي.. هيرمان

رسالة إلى الآنسة فريني كيلر (أغسطس ١٩٤٥)

آنستي العزيزة...

(...) في النقطة التي أشرتِ إليها لا فرق بين الشاعر والفنان، صحيح أن امتلاك الموهبة شرط أساسي في الحالتَين، وأقصد بالموهبة عند الشاعر ما يتجاوز نطاق المهارة اللغوية أو الحسّ المرهف بالألفاظ، لكني أضيف إليها عنصرَ بناءِ شخصية الفنّان، وهو ما وصفتِه في رسالتك بـ«الاجتهاد»، بينما أسميه أنا العمل الدؤوب المتواصل.

غالبًا ما تبدأ القصيدة لدى الشاعر بـ«إلهام»، والإلهام إما أن يكون فكرة أو صورة باطنية، وإما أن يكون بضع كلمات تحضر الشاعر، وعنوان ذلك كله «الخاطرة» التي تسنح للشاعر، وهي بيت القصيد.

بعدها، وفي أثناء تنقيح ومراجعة ما خطّه الشاعر على الورقة، يواصل النظر في قصيدته، متسلحًا بالوعي، ومسترشدًا بالقواعد. يحدث عند الموسيقيين مثلًا أن تسنح لأحدهم خاطرة، فيشعر باستحالة تدوينها على نوتة موسيقية، لكنها لا تلبث أن تأتيه صاغرةً إذا ما استرشد بالقواعد الموسيقية.

لقد أصبتِ عين الحقيقة في رسالتك، لا يمكن للعمل الفني أن يُولد من رحم الموهبة وحدها. وهناك هوّة شاسعة تفصل بين الهاوي والفنان الحقيقي، فالهاوي غالبًا ما يكتفي بأول فكرة تطرأ على ذهنه، فتأخذه الرهبة من مواصلة تطويرها وتشذيبها على مستوى اللغة والإيقاع الشعري. أما الفنان الحقيقي فيجد سعادته القصوى في الوصول بعمله الفني إلى درجة الكمال ما وسِعهُ الأمر، ومهما تجشّم من عناء، ومهما نقح وصحّح وعدّل.

تحياتي.. هيرمان

رسالة إلى قارئة (بادن، ٢٣ نوفمبر ١٩٤٥)

عزيزتي الآنسة سين..

أشكرك جزيل الشكر على خطابك الذي أسعدني.

لم يكن من المفترض أن تُنشر هذه السخافة المتصلة بحظر نشر أعمالي على صفحات الجرائد، لا أراها سوى طيش يخلو من المنطق(57). فطالما نذرتُ حياتي لغوث المضطهَدين والمطارَدين والمعذَّبين، وطالما امتلأتُ فخرًا بعداوة الطغاة والبرابرة، سواء كانوا «الوطنيين الألمان» حاليًّا أم النازيين أم الأمريكان. من الحماقة أن نمنح هذا «القرد» شرفًا إذا رددنا على تهديداته، أو إذا اضطررتُ إلى تبرير مواقفي، وكأنني في حاجة إلى ذلك. الأمر سيّان عندي أن تُطبع أعمالي داخل ألمانيا قبل وفاتي بخمس دقائق أو بعد رحيلي بسنوات، لا فرق.

أشكركِ على صفاء مودتك ومشاعرك الوفية.

تحياتي.. هيرمان

إلى السيدة يوهانا ألتينهوفر (يونيو ١٩٤٦)

عزيزتي السيدة ألتينهوفر..

شكرًا على خطابك الرقيق. سأجيب عن سؤالك بعبارة واحدة حاسمة: لم أحب الشامبانيا في حياتي قطّ.

يومًا وراء يوم، يصير التعامل مع مشاعر الخشونة والحسد والشماتة والضغينة تجربة بشعة، رغم أننا نعي تمامًا أن هذه هي طبيعة البشر، وأن أغلب من نراهم في حياتنا اليومية ليسوا إلا «نصف بشر»، بل إن أكثرهم أدنى مرتبة من ذلك.

فخِسة الطباع تحاصرنا من كل ناحية، وتحيق بنا كما يحيق بنا خطر الموت. ولكن قد يرتبط خوفنا من هذه الأخلاق الدنيئة بأننا لا نستطيع مقابلة الشر بالشر، ولأننا ندرك أو ربما نحدس أن سبب هذه المشاعر هو الظروف المزرية لأغلب البشر حاليًا، وهي الظروف التي أفرزتْ دناءة الطباع وخسّة الأخلاق، وأنه ليس أمامنا -رغم كل شيء- إلا أن نتعامل مع هذه الظروف البائسة بشيء من التهذّب والتحضر والمرونة.

تحياتي القلبية

هيرمان

رسالة إلى رين يوبيشي (مونتانيولا، منتصف أبريل ١٩٤٧)

عزيزي السيد يوبيشي(58)..

رسالتك هي رسالة شاب إلى شيخ مسن، وسيكون ردي ردَّ رجل أعياه

المرض وتقدمت به السنّ، وسأبعث إليك ببعض الأوراق التي أرجو أن تطالعها بعين فاحصة. الحقيقة أنك ترى فيَّ ما لا أحسبه في نفسي، وتضعني فوق قدري، وهذه عادة الشباب دومًا، فتراني نافذة يمر عبرها النور. لكن ظني أن دور النافذة الوحيد هو ألا يحول دون نفاذ النور إلى قلوب الناس.

أخبرتَني أنك من أتباع مذهب «الزن»(59)، ومن ثم لا يعوزك مرشد روحي أفضل من اتّباع المذهب. معرفتي بمذهب الزن ضئيلة، ورغم اطلاعي اليسير على مبادئ المذهب أشعر بأنه يبشّر بعالَم فكري غاية في السمو، ونظام رُوحيّ غاية في الروعة. ها أنت ذا داخل حصنٍ منيع يقيك شر الإصابة بالأمراض التي خلفتها الفوضى السائدة في اليابان حاليًا، لكني لا أستطيع أن أطرد عن ذهني إمكانية تعارض اعتناقك مذهب الزن مع خططك المستقبلية في عالم الأدب، فالأدب مهنة خطيرة، لا تقلّ في خطورتها عن الانخراط في سلك الكهنوت.

ينبغي للأديب الحقيقي ألا يرى نفسه نورًا ولا سراجًا وهاجًا ينير للآخرين طريقهم، الأَولى بالأديب أن يرى ذاته مجرد نافذة شفافة ينساب عبرها إلى الآخرين نور الحكمة الأزلية في اللحظة المناسبة.

تحياتي القلبية.. هيرمان

رسالة إلى قارئة (نوفمبر ١٩٤٧)

آنستي العزيزة...

أنا شيخ مسن، أعاني المرض ولم أعد أقوى على تحمل قراءة البريد يوميًا، لكني وجدت في خطابكِ ما هو جدير بالانتباه، لذلك سأحاول أن أجيبك عنه إجابة موجزة.

لقد عثرت في روايتي «لعبة الكريات الزجاجية» على أشياء لم يسبق لي أن تنبّهت إليها. والعكس صحيح، فقد اشتملت الرواية على أشياء لم تفهميها حق فهمها، وهذا طبيعي ومفهوم إذا ما أخذنا في الاعتبار حداثة سنكِ. من بين هذه الأشياء مثلًا تضحية البطل يوزيف كنيشت بحياته. تقولين إن يوزيف كنيشت كان في مقدوره ألا يقفز للسباحة في البحيرة متعللًا بمرضه، ومتسلحًا بالحكمة والذكاء. لكن ما حدث أنّه قفز مضحيًا بحياته، لأن بداخله ما هو أعمق من الحكمة والذكاء. لم يشأ كنيشت أن يُخيّب رجاء هذا الصبيّ الذي عثر عليه بصعوبة، فترِكَ على الشاطئ تلميذه تيتو، الذي رأى في تضحية الأستاذ بحياته تذكرة خالدة وسراجًا منيرًا لا تذوي شعلته مدى الحياة، وهي تذكرة ستلقّنه عِبرة وعِظة تفوق مواعظ الحكماء.

يحدوني أمل أن تفهمي ذلك بمرور الأيام، لكني في نهاية المطاف لا أعول كثيرًا على مسألة فهمك لمغزى موت كنيشت، ولا أن تتقبّليها برحابة صدر. ما أعوّل عليه هو أن مشهد موت كنيشت قد أثّر فيك تأثيرًا بالغًا، وحفر في روحك -كما فعل مع التلميذ تيتو- نُدبةً لا تندمل، وتذكرة لا تُمحى.

لقد أذكت تضحية كنيشت في أعماقك شوقًا رُوحيًا، وأيقظت بداخلك صوت الضمير، وسيمتدُّ تأثير هذه التضحية حتى يأتي اليوم الذي تنسين فيه روايتي، بل تنسين فيه هذه الرسالة.

أنصتي إلى هذا الصوت النابع من أعماق روحك، لا من الرواية، وسوف يُلهمك سبيل الرشاد.

رسالة إلى طالبة (مايو ١٩٤٥)

عزيزتي..

سألتِني في رسالتكِ تفسيرًا لرواية «لعبة الكريات الزجاجية»، وافترضتِ أنه من المهم للكاتب الوصول بعمله إلى أكبر عدد من القُرّاء، لكن تلك لم تكن غايتي من وراء كتابة الرواية. فالعمل الفني يختار دائمًا جمهوره، ولا يجبر أحدًا على فهمه، بل يكفيه عشرة قُراء أو عشرون. وقد تحقق للرواية مرادها(60).

وافترضتِ أيضًا ضرورة شرح روايتي للقارئ وإلا فلن يجد سبيلًا إلى فهمها. وهذا خطأ صريح، فقد أنفقت إحدى عشرة سنة في رسم وبناء الأفكار أو الأسس الروحية/الفكرية لعالم إقليم كاستاليا وعالم لعبة الكريات الزجاجية، أنفقتُ أروع أوقات هذه السنوات وأفضلها، واليوم تأتين لتسأليني اختصار ما أخفقتُ في تحقيقه خلال إحدى عشرة سنة، في رسالة قصيرة، أعني إثبات حقيقة وواقعية هذه الأفكار؟! لا أعتقد أنك

جادة في كلامك!

من المؤكد أن ثمة عددًا هائلًا من الشروحات والتفسيرات الممتازة والبارعة للأعمال الفنية، لكن هذه التآويل والشروح ليست مهمة المؤلف، بل مهمة فقهاء اللغة، ويجب أن تعنى هذه الشروحات في المقام الأول بالأعمال الأدبية التي صمدت في وجه الزمن على مدار مئات السنين، أو عشرات السنين على الأقل. على أن ما يُكتب اليوم من شروح وتأويلات يتحاشى دائمًا تأويل النصوص من منظور لغويّ، وهو المنهج النقدي الذي أفضّله عن غيره.

أتفهم تمامًا عجزك على الولوج إلى عالم الرواية، والسبب أن الرواية ترسم عالمًا روحيًا ونظامًا تربويًا مختلفًا عن العالم المألوف الذي تعيشينه، وعن الواقع المحيط بكِ (بما لا يمنع من أن يكون بها شيء من الواقع). ولكن اللجوء إلى تأويل الآخرين أو استطلاع رأي المؤلف نفسه دائمًا ما يكون مدخلًا مُضللًا إذا ما أخفق القارئ في الولوج إلى عالم روايةٍ ما. الأَولى بالإنسان في هذا الحالة أن يضع الرواية جانبًا، وأن يهجرها إلى الأبد، ويستوي عندي في ذلك الأعمال الأدبية والكتب المدرسية، سواء بسواء.

رسالة إلى الآنسة جيرترود بوكوفسكي (صيف ١٩٤٨)

آنستي العزيزة..

جميعنا اليوم غارق في حالة يأس وقنوط، أقصد جميع البشر اليقِظين لما

يجري حولهم، نطوف بين قطبَين هما الله والعدم، نشهق ونزفر بينهما، ونتأرجح وندور بينهما. تراودنا كل يوم رغبة في إزهاق أرواحنا، فتكفّ أيدينا قوّةٌ ما ورائية، سرمدية تسكن صدورنا. فما يلبث أن يتحول الضعف إلى شجاعة دون أن نكون أبطالًا بالضرورة، مُنقذين بذلك قبسًا من شعلة الإيمان المخزونة فينا، ذُخرًا للأيام القادمة.

رسالة إلى فنان شاب (٥ يناير ١٩٤٩)

عزيزي جيه كيه..

شكرًا على تهنئتك بالسنة الجديدة. خطابك مُحزِن وغارق في الكآبة، وأتفهّم جيدًا كل ما ذكرتَه.

أثارت انتباهي عبارةٌ وردتْ في الرسالة تقول إنك متألم من فكرة وجود مغزى لحياتك ومهمّة أُنيطتْ بك لكنك عاجز عن إنجازها. ورغم يأسك فعبارتك مفعمة بالأمل، وهي عبارة صادقة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. أرجو أن تعي ذاكرتك ملاحظاتي التالية وأن تتدبّرها جيدًا، والأفكار التي سأطرحها عليك ليست أفكاري، بل هي أفكار قديمة قِدم العالَم، وهي أفضل ما أنتجته قريحة البشر من أفكار عن العالَم والوجود.

إنّ كل عملٍ تؤديه في حياتك، لا كفنان أو ككاتب فحسب، بل كإنسان، ورجلٍ، وأب، وصديقٍ، وجارٍ، إلخ، لن يُوزَن بميزانٍ محدّد سلفًا، معلّق في العقل الأزليّ للعالَم أو في عنق العدالة الإلهية، بل سيُوزَن بميزانك

الشخصي، ستكون أنت المعيار. لن يسألك الله حين يحاسبك هل كنتَ هودلر(61) أو بيكاسو أو بيستالوتسي(62) أو يرمياس جوتهيلف(63) بل سيسألك هل كنت بالفعل جيه كيه؟ وهل صِرت نفسك حقًّا؟ ماذا صنعتَ بالمهارات التي وُهِبتَ، وبالإرث الذي ورثتَ؟ ساعتها لن يتذكّر أي إنسان حياته، وأقصى ما يستطيعه أن يقول: «لا، لم أكُن نفسي، ولكني بذلت أقصى ما في وسعي لأكون نفسي». وحين يمتلك المرء القدرة لأن يقول ذلك بصدق فسترجح كفة ميزانه، وسيجتاز التجرِبة.

أما إذا كانت تصوراتي عن الله أو عن «قاضي السماء الديان» تزعجك، فلا بأس من طرحها جانبًا، فليس هذا مقصدي. مرادي أن أقول إن كل إنسان منا ورث تركةً، وأُنيطَتْ به مهمّة. يرث الإنسان مجموعة من الخصال والصفات، قد يرثها عن أمه أو أبيه، أو عن أسلافه أو أبناء وطنه، أو قد يرثها بحكم لغته الأم، وسواء أكانت تلك الخصال خيرًا أم شرًّا، وسواء أكانت مقبولة أم مرذولة، وسواء أكانت ميزةً أو عيبًا، فمحصول هذه الخصال كلها هو المرء نفسه، وفي حالتكَ محصولها هو أنت شخصيًّا يا سيد جيه كيه، ومهمّتك أن تحسن معاملتها، وأن تتجشّم عناءها حتى الرمق الأخير من حياتك. مهمّتك أن تتركها تنضج على نار التجارب، وفي نهاية المطاف تردّ الأمانة -بشكلٍ أو بآخر- إلى أهلها كاملة غير منقوصة. وما أكثر من الأمثلة الخالدة على ما أقول، فتاريخ العالم وتاريخ الفنّ حافل بهذه الأمثلة. من بين هذه الأمثلة ما نطالعه في كثير من الحكايات الشعبية عن فرد في عائلة، مجرد فرد أحمق عديم النفع يختاره القدر لأداء دور محوري

في مسألة ما، فينجح في أدائها بفضل إخلاصه لطبيعته، نجاحًا يفوق فيه الموهوبين والناجحين من أفراد عائلته.

وهنا يحضرني مثال آخر يعود إلى مطلع القرن الماضي، إذ عاشت في مدينة فرانكفورت عائلة معروفة بتفوّق أبنائها تُدعى عائلة برينتانو، لم يشتهر حتى اليوم من بين أبنائها العشرين سوى فردَين فقط: الشاعر كليميز والشاعرة بيتينا برينتانو. الطريف أن جميع أبناء العائلة كانوا يتحلّون بمواهب فنية بارزة، لافتة، ممتازة، وبروحٍ خلّاقة، وبقدرات متفجّرة. لكن الابن الأكبر كان نكرةً بليد العقل وسط أفراد العائلة، وعاش حياته صامتًا مثل شبحٍ يسكن أرجاء المنزل، لا يُرجى منه نفع ولا ضرّ. كان كاثوليكيًّا ورعًا، رابط الجأش، متهلل الوجه، مشرق الجبين على الدوام تجاه أفراد أسرته كأخٍ وابن بار، وبمرور الوقت صار هذا الابن أخفّ الإخوة ظلًا وأقربهم إلى روح الدعابة، فتحول بذلك إلى رمانة ميزان العائلة، وإلى محور لقاءاتهم، وإلى ملاذ هادئ يُلجأ إليه في أوقات الضيق، صار الابن هو درة البيت المتلألئة التي تشعّ سلامًا ومحبّة على قلوب الآخرين. وكان باقي الأشقاء والشقيقات يتحدثون عن شقيقهم خامل الذكر الصموت بإجلال وحب غير مسبوقَين. وهكذا أدرك الابن الأبله الأخرق مهمة وجوده وغاية حياته، فأداها أداءً لم يوفّق إليه إخوته الأشد ذكاءً ونباهة.

فحوى كلامي باختصار أنه إذا ما وجد الإنسان في نفسه حاجة إلى تبرير غاية حياته، فعليه ألا يربطها بإنجازه عملًا ساميًا رفيعًا على المستوى العام وأمام الناس، بل الأجدر به أن يربط غاية وجوده بقدرته على تحقيق ذاته

تحقيقًا نقيًا صادقًا قدر استطاعته، قولًا وعملًا.

لا شكّ أن ثمة آلاف الإغراءات تنحرف بنا كل يوم عن جادّة الصواب، لكنّ أشدّها خطرًا هو محاولة الإنسان أن ينسلخ عن طبيعته التي وُلِد بها، وأن يضع نصب عينيه مُثلًا عُليا ومبادئ أخلاقية يعجز عن بلوغها، بل لا ينبغي عليه من الأساس أن يفكّر فيها. وهذه الإغراءات أشدّ أثرًا وخطرًا على البشر من وساوس النفس العادية كالأنانية، وسبب خطورتها أنها ترتدي -ظاهريًّا- قناعًا وهميًا اسمه المثالية والأخلاق.

لا يوجد من لم يُرِد يومًا في سن معينة أن يصير سائق عربة جياد، أو أن يقود جرّارًا، ثم تطوّر به الحال لأن يصبح صيّادًا أو قائدًا في الجيش، ثمّ تطوّر به الحال لأن يصبح مثل جوته أو دون جوان، وهذا مفهوم، ومرحلة طبيعية من مراحل تطوّر الشخصية والتربية الذاتية. ما يحدث في الحقيقة أنّ الخيال البشري يجرّب إمكانات المستقبل المتاحة أمامه، لكن الحياة لا تسمح بتحقّق هذه الأمنيات، فسرعان ما تتبدّد أحلام الطفولة والشباب، لكنّ الإنسان -رغم ذلك- لا يتوقّف عن أن يمنّي نفسه ببلوغ آمالٍ ليست من نصيبه، فيعذّب نفسه بمتطلبات فوق طاقته، ويُثقِل روحَه، وهذا هو حال كل واحد منا.

لكن في لحظات اليقظة الداخلية نشعر أنْ لا سبيل أمامنا ولا خلفنا إلا أن نَقبَل بمواصلة الحياة بحلوِها ومُرِّها، وبكل ما فيها من مزايا وعيوب، وقد يحدث أن يفرحنا شيءٌ ما لم يكن في الحسبان، فنَقبَل أنفسنا دون شك،

ونرضى عنها دون إنكار. صحيح أن ذلك الشعور لا يستمرّ إلى الأبد، لكن الحقيقة أنّ أرواحنا لا تتوق إلى شيء أكثر من توقها لأن تنمو نموًّا حُرًّا، وتنضج نضوجًا هادئًا لا تقيده القيود، وعند تلك اللحظة يصل الإنسان إلى التوافق مع هذا العالم.

لا يفوتني أن أنبّهك إلى أنني أقصد عبر هذه التذكرة أن لكل إنسان مهمّته الخاصة خُلِقَتْ من أجله وحده، وهي ما يصفها هواة الفنّ قديمًا وحديثًا بتحقيق الذات الفردية وبلوغ الأصالة. كما لا يفوتني أنّ أذكرك أنه ينبغي للفنان، إذا نوى أن يكون الفنّ مهنته وطريق حياته، أن يحترف مهنة أخرى إلى جانب فنّه، ليس بالضرورة أن تكون المهنة التي أمارسها أنا هي التي يمارسها غيري، بل أن يتعلّم مهنة أخرى كي لا يفقد ذاتيته وأصالته. أما الفنان الذي يرفض التعلّم، ويفرّ منه كمن يفرّ من الجذام، فسيتخلّى عن واجباته كإنسان، وسيتملّص من التزاماته الأخلاقية إزاء أصدقائه وإزاء زوجته وإزاء أطفاله، ليجلس القرفصاء على جانب الطريق، مفسدًا على نفسه كل شيء. وتاريخ الفنّ حافل بأمثلة كثيرة من هذا النوع.

إن بذل الجهد والتعلّم أمران طبيعيان في الفن كما في الحياة، ويجب أن يُعلَّم الطفل الأكل والاعتناء بالنظافة، كما يُعلَّم القراءة والكتابة، فتعلّم ما هو قابل للتعلّم ليس عقبة في طريق الفنان، بل هو دعم لتطوّر ذاته الفردية وإثراء لها. ينتابني أحيانًا الخجل من تكرار هذه البديهيات، لكن الأرجح أن أحدًا اليوم لم تعُد لديه حاسّة إدراك هذه البديهيات.

تعلم أنني لا أقلّل من شأن الفن الحديث، على العكس، لكن حينما يتصل الأمر بموقف الإنسان إزاء واجباته تراني أنظر إلى الحداثة والتجديد نظرة شكّ، وسرعان ما تمتلئ نفسي بالريبة كلما سمعتُ من المثقّفين المتأنقين كلامًا عن الأخلاقيات والآداب الحديثة، وكلما سمعتُ حديثهم عن الحداثة والتراث في الفنّ.

يسود عالمنا اليوم مطالب جديدة تروّج لها الأحزاب والدول ومُعلّمو المثل الأخلاقية في العالم. تنادي هذه المطالب بأن يتخلّى الإنسان تمامًا عن فكرة الخصوصية والذاتية، وأن يستبدل بها فكرة توطين نفسه على قبول مذهب إنسانيّ مُوحّد، أن يصير ترسًا في ماكينة، وحجرًا يشبه ملايين الأحجار. لكني لا أودّ أن أصدر حكمًا حول القيمة الأخلاقية لهذا المطلب، فهذا حديث ذو شجون. لكنني لا أومن بصدق هذا الحديث أبدًا، فمطلب صبّ البشر في قوالب ثابتة، مهما خلصت نياته، مُجافٍ للطبيعة البشرية، ولن يصنع مزيدًا من السلام والهدوء، بل سيذكي نار الأصولية والحروب.

إنّ دعوات اليوم الرائجة المطالِبة بمحو الخصوصية الذاتية والفردية هي في الواقع دعوة لا تليق إلا بالرهبان، ولا يجوز تطبيقها إلا إذا أردنا أن نتعامل مع رهبان داخل دير. لكني لا أظنّ أن هذه «التقاليع» ستُلحِق بك ضررًا حقيقيًا.

أرى أن رسالتي قد تحوّلت إلى دراسة، لذا سأعيد النظر فيها، وأعرضها على أصدقاء لقراءتها متى سنحت الفرصة، ولا أظنّ أنك سترفض ذلك.

رسالة إلى قاريء شاب (صيف ١٩٤٩)

عزيزي باول..

(...) لا نملك، نحن معشر الشعراء، سطوة كسطوة الكنيسة ولا نفوذًا كنفوذ الدولة، لذلك ترانا أحرارًا من ربقة القيود العقائدية الجامدة، وهذه هي وظيفة الأدب: أن يسعى دائمًا وأبدًا إلى إلباس حقائق الحياة الأبدية ثوبًا جديدًا يلائم روح العصر الجديدة، نحن لا نأمر الناس بأوامر، ولا نلقّنهم مواعظ، لأن ذلك شأن مَنْ يملك سلطة ونفوذًا رسميًا، كل ما نسعى إليه هو أن نشير إلى الطريق الذي ينبغي للمرء أن يسلكها من بعيد، شريطة أن تتوافر لديه النيّة لأنّ يحقق هدفه في الوجود.

نعقِد الأمل على القرّاء المؤمنين بأصواتنا الأدبية أن ينظروا إلينا كعصي يتكِئون عليها، وكرفاق درب أكثر من أن ينظروا إلينا كوسيلة، فكلّ همّنا أن نرغّبَ إلى القاريء معرفة نفسه معرفةً أعمق، وأن نحضه على التحلّي بالشجاعة ليشق طريقه في الحياة ويواجه قدرَه دون خوف. ومتى تحقّقت تلك الغاية، فجدير بالقاريء أن يضع كتبه جانبًا، وأن يواصل حياته دونها.

رسالة إلى شاعرة في السادسة عشرة

سِلز ماريا - ٢٣ يوليو ١٩٥٢

آنستي العزيزة..

قصائدكِ الشعرية لم تبلغ طور الاكتمال بعد، لأنها لم تتخذ شكلًا واضح المعالم.

لا أعرف شاعرًا استطاع نظم قصيدة مكتملة الأركان ولما يبلغ السادسة عشرة، اللهم إلا آرتور رامبو، لكني أومن بامتلاككِ موهبة حقيقية، استشعرتها من بين سطور الرسالة أكثر مما نبأتني به القصائد ذاتها. أوصيك بمواصلة البحث عن صوتك (الخاص)، ولا أستطيع الجزم إذا كان الشعر هو الشكل الذي سيحقق ذاتك الفنية أم لا.

نصيحتي ألا تغرنك يومًا أحكام الآخرين، وألا تنزعجي من آرائهم فيما تكتبين.

إلى السيد جيورج ميرفاين (نوفمبر ١٩٥٢)

عزيزي السيد ميرفاين

عليكَ أن تتقبل ردي المقتضب الذي سيخيب أملك قليلًا.

أعتقد أنني فهمت مقصدك، لكني في الوقت نفسي لا أظنك تنشد فهم الآخرين فقط، بل تريدهم أن يوافقوك على ما تقول، وهو ما يتعذّر عليّ في الحقيقة. لا شكّ أنك فنّان شاب موهوب، حظيتَ بفرصةٍ أخفق آلافُ غيرك في الحصول عليها، وهي فرصة مواصلة الدراسة الجامعية، لكنكَ تشعر باليأس والقنوط، لأن والدك يفرض عليك واجبات دون أن يمنحكَ حقوقًا، بينما يمنح نفسه كافة الحقوق والحريات دون أن يلزم نفسه بشيء.

أتفهم موقفك تمامًا. لكنه موقف يليق بشابٍ في السادسة من عمره، بينما أنت أنضج من ذلك.

اسمع: طالما أن والدك يتكفّل بمصروفاتك ونفقاتك، فله عليك كافة الحقوق. وليس أمامك، والحال هكذا، إلا أن تبذل قصارى جهدك لتحقيقه هدفٍ واحد، وهو أن تستقل عنه ماديًا. ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بمواصلة تحصيل دروسكَ بجد واهتمام حتى نهاية المشوار، الأمر الذي لن تتمكن من تحقيقه دون والدك ودون دعمه المادي. وحينما تصل إلى مرحلة تشعر فيها بالاستغناء عنه، ستشعر بقدرٍ من الحرية التي تبتغيها. أما إن كان هذا الحل لا يرضيك، فسيظل خيار الانتحار ماثلًا أمام عينيك.

وريثما يتحقق ذلك، أقصد ريثما تحقّق الاستقلال المادي الكامل عن والدك، فستجد في الفن راحةً وسلوانًا، وربما عليك استثمار حالة الضيق التي تمر بها في تنمية قدراتك الإبداعية في الكتابة.

رسالة إلى الجورو(64) شيتاندا (يناير ١٩٥١)

عزيزي السيد شيتاندا،

كان أبي مبشرًا في الهند، كما كان جدي لأمي متخصصًا في فقه اللغة السنسكريتية والحضارة الهندية، فلا غرو أنني أضمر حبًا عظيمًا للحكمة الهندية. وفي مرحلة لاحقّة من حياتي قرأت أعمال حكماء الصين العِظام،

الذين تُرجِمت آثاراهم إلى اللغة الألمانية مثلهم مثل آثار البوذا.

ليس في وسعي أن أسديك نصيحة، وعليك بالبحث عن المرشد الروحي في أعماق روحك، ولستَ مضطرًا لأن تعدّ خطّة مدروسة لبلوغ ذلك، فقد تضيع عندها النوايا الحسنة. كل ما عليك هو أن تواصل تنمية وتطوير الملَكات والقُدرات التي وُهِبتَها تطويرًا قويًا مخلصًا قدر الإمكان، عندها ستتكشّف أمامك المهمة التي خُلقتَ من أجلها في هذه الحياة.

أستميحكَ عذرًا على كلماتي القليلة الموجزة، فقد تقدمت بن السن ووهنتْ قواي، لكني سأرفق طي خطابي بعض الأوراق التي ستلمسكَ.

تحياتي..هيرمان

إلى شاب في السابعة عشرة (٨ يناير ١٩٥٣)

عزيزي السيد جينزن

لستُ الشخص المناسب للإجابة عن سؤالك. فالنقد الأدبي والقراءة الفاحصة أولى برجل يملك فضولًا ونهمًا إلى الأدب، ولم أعد أتحلّى اليوم بتلك الخصال. رغم ذلك حفّزني خطابكَ على قراءة بعض قصائدك.

قصائدك ليست من النوع الذي سيحفر لنفسه مكانًا في الأدب العالمي، وحسب علمي فلم يسبق لشاعرٍ أن كتب قصائد وهو في سن السابعة عشرة، اللهم إلا آرتور رامبو(65). وسيكون من المؤسف حقًا أن تختتم حياتك

الشعرية في هذه السنّ المبكرة كما فعل رامبو، وألا تحظى بمستقبل أدبي كما كان الحال مع رامبو المسكين.

يبدو لي أنك تحلّى بالموهبة اللازمة لتصير شاعرًا مُجيدًا. وربما حين تبلغ العشرين ستلقي إلى النار بما كتبته وأنتَ في السابعة عشرة، وستحرق في سنّ الخامسة والعشرين ما أنجزتَ في سنّ العشرين، وسيستمرّ بك الحال هكذا حتى تصل إلى مرحلة- بعد أن تكون قد جرّبت أشكالًا تعبيرية وتأملية عديدة- تحشد فيها تركيزكَ على ما تودّ وتستطيع التعبير عنه وقوله. وربما حينئذٍ ستكتبُ حوارًا يدور على لسان «لاو دان» و» كونج» (66)، حينما يقول تلميذ التاو: «أنا من كنتُ أعرف أن الأمرّ محال، لكني حاولتُ».

أتمنى كل التوفيق في مشوارك

رسالة إلى السيد فيل شتوفِر (١٩٥٣)

عزيزي السيد شتوفِر،

الضمير مسألة تخص الفرد، تخصّ الذات، ولا محل هناك لأية قوانين موضوعية.

في حداثة سنّي اعتدتُ صيد الفراشات والأسماك، لكني هجرت تلك الهواية في اللحظة التي تغلّب فيها إشفاقي من قتل هذه المخلوقات على شغفي بالصيد. لكن لا بدّ من كلمة بخصوص مسألة الموضوعية. الصيّاد الذي يطلق النار

إطلاقًا وحشيًا غاشمًا في الغابة هو صيّاد جائر. أما من لا يغلو في إطلاق النار، مُصوبًا نحو هدفه، مُكرسًا عنايته بمخلوقات الغابة كما يعتني بإصابة هدفه، فهو صياد محترف.

وبالتالي فصياد الفراشات الجاد الواعي عليه أن يسعى جاهدًا على وقف إبادة الأنواع النادرة منها أو المصادر التي تتغذى عليها، وهذا هو أقلّ ما ينبغي تقديمه في المقابل، تعويضًا للطبيعة الأم على ما سلبَه منها، أظنّك فهمتَ قصدي.

رسالة إلى فتاة شابّة (فبراير ١٩٥٥)

آنستي العزيزة،

لستِ في العالم وحدك كما يبدو لك، وليس الآخرون سعداء ولا متبلّدي الشعور كما يتراءى لك. وعليك أن تبحثي عن «هؤلاء الآخرين»، حتى ولو انتهى الأمر بالعثور على واحدٍ أو اثنين.

كثير من البشر يعاني مثلما تعانين، وكثير من البشر يشعر بالوحدة كما تشعرين، ويُحسّ بالانعزال عن أنفسهم، والاختلاف، أما السبب فأنهم أغلقوا الباب على أنفسهم، ولم يحبّوا سوى أنفسهم، ولم يمدّوا خيوط التواصل مع غيرهم. كل ما تحتاجينه هو الحب، وبذل النفس، والتواصل، الانفتاح على الآخرين، وتبادل الآراء والثقة بالغير. وطالما لم تفعلي ذلك، سيبقى العالم طافحًا بالسواد في عينيك، وستبقى الحياة خالية من أي معنى

أو غاية.

رسالة إلى قاريء مجهول (١٩٥٥)

عزيزي،

أعجبتني قصيدتك، أشكركَ عليها وكذلك على خطابك الرقيق الذي أتفق تمامًا مع ما جاء فيه. تقول إنكَ تحسدني لأنني هرِمتُ، ولأنني أشرفُ على النهاية. ما تقوله طبيعي ومفهوم، ففي مغادرة الحياة عزاء وسلوان، لأني لن أضطرّ ساعتها إلى تنفّس هواء المُنتن لعصرنا الراهن، والحقيقة أن الهواء صار منتنًا منذ أمد بعيد، منذ نشوب الحرب المقدسة.

ثمة فرق هائل بين انسحاب الشيخ الهَرِم، الشيخ مُنهك الجسد من هذا العالم، الذي لم يعد يُعنى بأمره كثيرًا، وبين الأفكار الباطنية العميقة التي مازلت تعتمل داخله. فالتعب البدني مجرد عرضٍ جسدي، وليس معنى رغبتي في الانسحاب من عالم اليوم وفسادِه، أنني قانط تمامًا وإلى الأبد من العالم ومن الإنسانية.

ليس الأمر كذلك، كل ما في الأمر أنني أستشعر اضمحلالًا للقيم، وأرى الأبشع لائحًا في الطريق، لكن لكل شيء نهاية على أية حال، ولا يمنع أن يزدهر كل شيء من جديد في عالم طاله الدمار كليًا، طالما أن الإنسان يحمل بداخله بذور الرغبة الصادقة و الإمكانات على تنفيذ ذلك.

وجه الخلاف بين رؤيتي ورؤيتكَ أنني أرى مشكلة العالم رؤية أعم وأشمل

من رؤيتك كمواطنٍ ينظر إلى واقع الداخل الألماني فقط. ففي أمريكا مثلًا يُنبذ اليوم كل من ينادي بالسلام وبتحكيم العقل مثلما تدعو أنت، حتى أنني شخصياً هنا في سويسرا المحايدة، لم أسلم من صفعات الصحافة، ومن وخزات رسائل القُرّاء بسبب مواقفي المناهضة للحروب.

تحياتي، فليس في مقدوري الاسترسال في الحديث أكثر من هذا.

هيرمان

رسالة إلى أحد قُرّاء كافكا (٩ يناير ١٩٥٦)

عزيزي السيد (ب)..

(...) للأسف سأخيِّب ظنك برسالتِي، فالأسئلة التي طرحتها، ورؤيتك للأدب ليستْ مُفاجئة بالنسبة إليَّ، فهناك الآلاف من أترابك الذين يفكّرون التفكير نفسه. ذلك أن أسئلتكَ التي لا أملك لها دون استثناء جوابًا، نابعة من خطأ واحد. تعالج قصص كافكا قضايا دينية أو ميتافيزيقية أو أخلاقية، لأنها أعمال أدبية بالأساس. والقارئ القادر على قراءة أعمال كاتبٍ قراءة حقيقية، دون إقحام قضايا، ودون انتظار ثمارٍ فكرية أو أخلاقية من وراء العمل، مُتقبلًا ببساطة ما يود الكاتب قولَه، فستبوح له الأعمال من خلا لغتها بكل الإجابات التي تشغل باله. لم ينطق كافكا بلسان رجل اللاهوت ولا بلسان الفيلسوف، بل نطق بلسانٍ أدبي مبين، ولا يقع عليه ذنب تحوّل أعماله الفنية العظيمة إلى موضة أدبية على

يد قُراء لا يتمتعون بأية موهبة أدبية، ولا يرغبون في تقبل طبيعة الأدب.

بالنسبة إليَّ كقاريء متابع لأعمال كافكا منذ بواكيره الأولى، فالأسئلة التي طرحتَها في خطابك لا محل لها عندي، فكافكا نفسه لم يعط عنها جوابًا. كافكا كان ينقل إلينا أحلامه ورؤاه حول حياته الموحشة القاسية، وكان يقدم إلينا قصصًا شبيهة بمعايشاته، وبمنغصات حياته ومسراتها. كانت هذه الأحلام والرؤى فريدة من نوعها، ومطلوب منا [كقُرّاء] قراءتها وقبولها، لا تحميلها بتأويلها تأويلات جامحة على يد الشُراح. فالتأويل لعبة المثقف، وهي غالبًا لعبة ممتعة تليق بمن لا يفقهون شيئًا في الفن، أقصد هؤلاء المتحذلقين الذين يقرؤون ويكتبون عن فن الحفر الإفريقي مثلًا، لكنهم يقفون أمام باب العمل الفني، عاجزين عن اجتيازه، تراهم واقفين أمام بوابة النص الأدبي مُمسكين بآلاف المفاتيح، فيجرّبون فتح البوابة مرة تلو الأخرى، لكنهم لا ينتبهون أبدًا إلى أن الباب مفتوح بالفعل.

هذا هو ردّي على أسئلتكَ بخصوص أدب كافكا، أعتقد أنني ارتضيت مرغمًا الإجابة عن خطابك، لأنك كنتَ جادًا فيما كتبت.

أفضل تحياتي

رسالة إلى السيد ماكس بوركلِن (مايو ١٩٥٧)

عزيزي السيد بوركلِن،

أنا شيخ في الثمانين، أعاني المرض وأثقل كاهلي، أستميحكَ عذرًا بأن أجيبكَ بكلمات موجزة.

لم تشتمل قصيدتي »أطوار« (67) على كلمة هجر البشر أو إقصائهم على الإطلاق، إنما هي ألفاظ أقحمتها أنت على القصيدة. ولن يتأتى لك فهم هذه القصيدة فهمًا صحيحًا، إلا بمعرفة أصل الحكاية وفصلها، فالقصيدة جزء من رواية لعبة الكريات الزجاجية. لكن ما يطمأنني هو وقع أبيات القصيدة عليك. يصدح من خطابكَ صوت ضميرك الحيِّ، فأيقنت أنكَ في أيدٍ أمينة رغم ما يعتريك من شكوك.

على أي حال أقول لك: متى صادفتَ كلمة تؤرّق ضميركَ داخل قصيدة، فاحذفها فورًا، واتبعْ صوت ضميرك.

تحياتي، هيرمان

رسالة إلى د. زيجفريد أونزيلد (الأول أو الثاني من إبريل ١٩٥٩)

عزيزي الأستاذ الدكتور أونزيلد (68)..

بقدر غبطتي أن صديقي العزيز بيتر (69) لن يُضطر إلى تجرّع مرارة المعاناة ولا إلى خوض صراعات من جديد، بقدر ما آلمني خبر أنه سبقني إلى الموت. إذ أعدّ مساعدتي إياه على تأسيس دار نشر جديدة بعد معاناته في الماضي مع نظام هتلر، ثم بعد خيبة أمله في دار س. فيشر، أقول أعد ذلك من أفضل إنجازات حياتي.

وها أنت الآن تأخذ مكانه في الدار، أدعو لك بمزيد من القوة والجلد والسعادة في عملك الجديد، لأنك تؤدي مهمة لا تخلو من صعوبة ومسؤولية برغم روعتها وسموّ شأنها.

يُقال في أيامنا هذه إن على الناشر أن يجاري طبيعة الزمن، لكنه ينبغي ألا يرضخ لتقاليع العصر، وأن يقف لها بالمرصاد، متى رآها مبتذلة. ولأداء هذه المهمّة يلزمكَ إقامة توازن بين التكيف مع الظروف والوقوف الواعي ضده التقاليع المبتذلة، وأنتَ أهل لذلك.

لأن هذه المهمة هي شهيق الناشر وزفيره.

أشاطركم الأحزان في وفاة صديقنا الفقيد، وأبعث إليكم بأطيب الأمنيات لكلينا بتعاونٍ مثمر.

تحياتي..هيرمان

إلى السيد جونترِ هيرمان (سنة ١٩٥٩ تقريبًا)

عزيزي السيد هيرمان،

أستميحك عذرًا على كلماتي القصيرة الموجزة، فقد تقدّمت بي السن وألـمَّ بي المرض.

أنت الوحيد القادر على معرفة سـر شخصيتك، لكنك لستَ من طينة البشر الذين سينتهي بهم الحال لأن يصيروا من عامة الناس، فسعيك الراهن في البحث يبرهن أنّك إنسان له ذات فردية تفوق الرجل العادي، لكن يبدو لي أنّك متعسف في البحث عن طريقك، فقد يحدث أن يواصل الإنسان البحث طوال حياته دون أن يعثر على ضالته.

السعي شيء والوصول شيء آخر.

فقد يكون غير المناسب للوصول إلى الهدف اتخاذ مسار بحث شاقٍ مجهد، بل العكس هو صحيح.

كانت حياتي عسيرة شاقة، لكن رحلة البحث لم تكن كذلك، فقد كنتُ أعلم منذ نعومة أظفاري أنني سأصير فنانًا، بل من المحتم أن أصير فنانًا. لكن طريقي لم يكن إلا حواجز وعوائق وأشواك، فالخطّ المرسوم بين السعي والوصول ليس خطًا مستقيمًا، ولا تكفي النوايا الحسنة ولا رجاحة العقل لخوض طريق الحياة.

بل ينبغي للفنان أن يُصغي، أن يسترق السمع، أن ينتظر، أن يحلُم، وألا يغلق الباب دون حدسِه.

وهذا مبلغ علمي.

رسالة إلى تلميذ (مونتانيولا، ١١ مارس ١٩٦٠)

عزيزي السيد فلان،

يوسفني للغاية تكليفكَ بهذا البحث السخيف(70). من المؤكد أن عقولًا عجيبة وراء تكليفكَ بهذه المهمة المؤلمة. ولو كنت مكانك، لانتابني الحيرة نفسها التي تنتابك الآن. فليستْ كتبي حقلًا للتجارب والأبحاث، لأنها أعمال فنية خالصة، لا يجوز التعاطي معها بهذه الطرق المدرسية. أتلقى أسبوعيًا استفسارات مشابهة لاستفساراتك، فيجتاحني حزن عميق بسبب سعي النظام التعليمي الدؤوب إلى قتل ملكة تذوّق الفن والأدب عند الطلاب والتلاميذ على هذا النحو.

ولم أكن سأعترض إطلاقًا لو كنتَ طالبًا يدرس فقه اللغات في أحد المعاهد العليا، وكُلِّفتَ بإجراء هذه الدراسة، فهذه الدراسات ليست من صميم عمل المدرسة أبدًا.

إلى السيد هانز هوديل (مايو ١٩٦١)

عزيز ي السيد هودل..

لم أعد أقوى على كتابة خطابات مُسهبة.

لو كنتَ قد قرأت كتابيَّ » سيدهارتا « و»الحكايات الخرافية« فلن يخالجك شكٌ مطلقًا فيما يمثّله الحبّ والخير من أهمية بالنسبة إليَّ. كذلك ستجد في كتابي »رحلة إلى الشرق« (71) اعترافًا صريحًا بأهمية دور المجتمع.

لكن التناقض الظاهري الذي لمسته في أعمالي سببه في الأساس معضلة الفنان الأزلية، أقصد أزمة الذات الفرديّة الموهوبة التي تفوق قدراتها قدرات الناس العادية. ففي سبيل عمله يضحي الفنان بسلوكه الاجتماعي، ويضحي بعلاقته مع المجتمع لصالح الفن، وهو ما لا يقدر عليه إنسان الشارع العادي، لكن ذلك يعود في النهاية بالنفع على الجميع. ليس عندي المزيد لأقوله ردًا عن أسئلتكَ.

كلمة أخيرة: قُرّاء أعمال هسّه ليسوا أفراد العصابات نصف الأقوياء ولا المجرمون، فأغلب قُرّاء أعمالي يجدون داخلها ذكرى توعّيهم بضروة الاضطلاع بمسؤولياتهم.

سأرفق طيّ خطابي طبعة خاصة من الكتّاب، وأرقّ تحياتي.

رسالة إلى صبيّ ياباني عمره أربعة عشر عامًا، نضج قبل الأوان

كان الشاب قد قرأ الكثير من أعمال «تولستوي» و«هيرمان هسّه»، فتزاحمت الأفكار في رأسه

(سيلز ماريا، يوليو ١٩٦١)

عزيزي كينزو تاكاهاتشي..

(....) أضمِر احتراماً عظيماً إلى »تولستوي«. على المستوى الفني أراني دونه بمراحل، أما كمفكرٍ وكمصلحٍ أخلاقي (رغم اختلافي معه في بعض الجوانب)، فلم يلتزم الرجل إلا بما كان يمليه عليه ضميره، وتفرضه عليه أخلاقه، متسلحاً بيسالة نادرة رغم وعورة العقوبات التي اعترضت طريقه.

عزيزي الشاب الباحث عن الحقيقة، اسمح لي أن أسديك نصيحة صغيرة: لا ترهق ذهنك بكثرة التفكير في أسئلة لا سبيل إلى حلّها، أقصد الأسئلة المتصلة بطبيعة الذات الإلهية، وبروح العالم، الأسئلة الباحثة عن الحكمة من وراء خلق الكون وتسيير شؤونه، عن أصل نشأة العالم والحياة. ربما يكون التفكير في هذه القضايا وطرحها للمناقشة لعبة ممتعة مسلّية، لكنها لن تؤدي إلى حل مشكلاتنا اليومية.

عزيزي، لقد أتيتَ إلى هذا العالم ولا تعلم فيمَ أتيتَ، لكنكَ اختُصِصتُ بمزايا غير عادية كما تبيّنتُ من بين سطور رسالتكَ. مغزى حياتك يكمن هنا تحديداً، أقصد في قدرتك على إنضاج حياتك وإنضاج ما مُنحت من نِعم العقل والروح، والوصول بكل تلك النِعم والمزايا إلى حدود الكمال قدر استطاعتكَ، وكلما تمكّنت من تحقيق ذلك على نحو أفضل، كلما انشرح صدرك.

عزيزي، ها قد أدركتَ أن أغلب الناس متشابهون، وأن أغلبهم لا يتمتع بمواهب نسبية مثلك أو مثل «تولستوي»، وأن أغلبهم لا يملك حياة خاصة ولا تفكيرًا مستقلًا، بل يعيشون ويتصرّفون دائمًا مثلهم مثل غيرهم. ولا سبيل إلى تغيير ذلك، وسيستمرّ الأمر هكذا، بل على العكس، فكلما زاد عدد البشر وكلما حازوا على مزيد من وسائل التقدم التقني، كلما تضاعفتْ سطحيتهم، وتحوّلوا إلى كتلة صمّاء متماثلة الشكل.

إذ لا ترى الجماهير في الحياة إلا مهمة واحدة، ألا وهي الإندماج في المجتمع، والتكّيف معه بأقصى قدر من السلاسة، وتجنب الاضطلاع بمسؤوليتها إلى أدنى حدّ ممكن. أما نحن، الأقلية المؤهلة لخوض حياة ذاتية أصيلة حقيقية، فنمتاز عليهم بامتلاك حواسٍ أرهف، وبقدرة أرجح على التفكير، وهذا العطايا الربانية قادرة على أن تمنحنا السعادة والرضا.

فنحن نرى ونسمع ونشعر ونفكّر ونتلقّى الأفكار على نحو أدقّ من الجماهير، ونملك ذائقة أكثر ثراءً واختلافًا، ولذلك ترانا دائمًا نشعر بالوحدة والخطر، وليس أمامنا إلا أن نتخلّى عن سعادة «الجماهير» التي لا تحمل شعورًا بالمسؤولية. ومسؤولية كل فردٍ منا أن يتبيّن ذاته، وأن يتنبّه إلى ما مُنح من مزايا، ومن إمكانات وصفات فردية، مكرسًا حياته للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وإلى تحقيق الذات الفردية.

وبصنيعنا هذا، سنقدّم إلى البشرية خدمة جليلة، لأن آثار الحضارات الإنسانية قاطبة (بما في ذلك الأديان والفنّ والأدب والفلسفة) لم يُكتب

لها النشوء والارتقاء إلا عبر هذه الطريق، وهي الطريق التي ستمكّن «الذات الفردية المتحققة» من خدمة المجتمع، ومن القضاء على ذيول الأنانية الخبيثة.

أكتفي بهذا القدر. وكلي ثقة من أنكَ ستجد ضالتك بنفسك.

أفضل تحياتي..

رسالة إلى فيرنر دورّ (منتصف نوفمبر ١٩٦١)

عزيزي السيد ف. دور،

بدقة بالغة أصابتْ رسالتكَ نقطتيْن طالما انزعجتُ من سماعهما: النقطة الأولى هي سوء الفهم المُبيّت لدى القرّاء، وأخصّ منهم بالذكر المعلّمين والتلاميذ، وكأن أهم ما في العمل الأدبي هو مضمونه وفحواه، ولا شيء غير ذلك! وأما النقطة الثانية فهي النزعة العقائدية المتصلبة للأدب الذي يكتبه شباب اليوم: فمضمون العمل لديهم سيان، ودائمًا ما تُصوَّر الأشياء كلها جميلة، لطيفة، راقية، مهذبة، وكأن لا سبيل إلى تجنب الفن الهابط.

وصلتني مجموعة كتب جديدة، قرأتُ بعضًا منها، وقد خيّبت ظنّي كلها تقريبًا، بل كان بعضها مثيرًا للغثيان. أستثني منها إصدارات دار «زوركامب»، كرواية «وداع الوالدين» للكاتب «بيتر فايس»، أو رواية Nebenan للكاتبة «يوهانا موزدورف».

ها هو الشتاء يطرق الأبواب. في ساعة الأصيل من كل يوم تتوهّج أمامي ذُرى سلاسلُ الجبال المُغطاة بالثلوج.

(مونتانيولا، ديسمبر ١٩٦١)

عزيزتي الآنسة برومبيرج(72)..

أشكركِ على خطابكِ الرقيق الذي أشاع البهجة في قلبي.

لكنك وصلتِ بعد فوات الأوان، فأنا في الرابعة والثمانين، وأتهيأ للانسحاب من هذه الحياة. وعاجلًا أم آجلًا، سيحلّ محلي إنسان آخر. فالحقّ لا يتغير، والحقيقة لا تتغيّر، مهما أطلّتْ علينا بوجوه شديدة التباين. وإن لم تعثري على بديلٍ يرشدكِ، فقد خطوتِ بالفعل أهمّ خطوة نحو المعرفة.

لن يتفق صوتكِ الداخلي تمام الاتفاق مع قوانين هذا العالم ولا مع قواعده الحاكمة، لكن ينبغي لك الإنصات إليه. إذ لا يصحّ لنا أبدًا أن نحتقر هذا العالم، بل يتحتّم علينا أن نضحي من أجله بعض التضحيات، لأننا مدينون إليه بالكثير. واعلمي أن صوت ضميرك الداخلي سيلهمك إلى أي حدّ ينبغي أن تكون التضحية.

(الرسالة الأخيرة في الكتاب، كتبها هيرمان هسّه قبل وفاته بخمسة أشهر)

رسالة إلى قارئة (مطلع مارس ١٩٦٢)

عزيزتي الآنسة هـ...

لم أسمع عن مسرحية « الخراتيت» إلا بما يدور على ألسنة الناس(73).

عجيب هو أمر روايتي «ذئب الأحراش»، وعجيبة هي طريقة استقبال ثقافات العالم وشعوبه المختلفة لأعمالي الأدبية. فأبناء ثقافات العالم الأوروبي العتيدة كإنجلترا وفرنسا وإيطاليا واثقون من مواقفهم، واقفون على طول الخط ضد الغريب. ولم تحظ أعمالي بالقبول - وفي نطاق محدود للغاية - إلا في اليابان، حيث تشهد الثقافة تصدّعًا كاملًا.

أما في ألمانيا فيراني الأدباء الشُبان كاتبًا رومانسيًا عتيقًا غريب الأطوار. بينما يُبدي الأدباء الطليعيون الجُدد في أميركا حماسة واضحة تجاه روايتيّ «ذئب الأحراش» و«دميان».

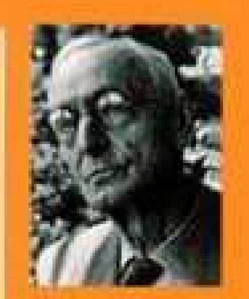
بعد فترة مرضٍ طويلة، تعافيتُ قليلًا من حالة الإنهاك البدني ومن الأنيميا بعد نقل الدم، لكني مضطرّ لتجرع بعض المنغّصات، صحيح أنها ليست مؤذية، لكنها تضايقني.

كم هو جميل أنك لم تنس الإشارة إلى الزهور في رسالتك.

عزيزتي..

اصبري على الحياة.

تحياتي القلبية



هيـرمان هسّـه

وُلد هيرمان هسّه في الثاني من يوليو سنة 1877 في مدينة كالف، والده هو يوهانس هسّه، عاش هيرمان الطفل مع والديه في بازل بسويسرا حتى سنة 1886 حينما عاد إلى مسقط رأسه كالف، في سنة 1891 التحق هيرمان هسّه بدير ماولبرون، في سنة 1899 اشتغل في مكتبة بازل وبدأ في كتابة المقالات والمراجعات الأدبية، في سنة 1946 تتوّج مشوار هيرمان هسّه الأدبي بحصوله على جائزة نوبل في الأدب عن روايته "لعبة الكريات الزجاجية"، وهو العام الذي نال فيه أيضًا جائزة "جيته" الأدبية الشهيرة، وفي سنة 1947 يحصل على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة برن، وجائزة فلهلم رابه الأدبية الشهيرة سنة 1955.

أنت.. جَواب السؤال



«إذا استولى عليك شعور بأنّ محاولاتك الأدبية تُعينك على رؤية نفسك ورؤية العالم رؤيةً أوضح، وأنّ ما كتبته يشحذ عزيمتك على خوض غمار الحياة، ويجلو معدن ضميرك، فالزم مقام الأدب. ولا يهمّ إن صرت كاتبًا أو لا. المهم أن ما كتبته سيصنع منك إنسانًا واعيًا بقيمته في الحياة، إنسانًا يقظًا، حادّ البصيرة. أمّا إذا اكتشفت أنّ كتابة الأدب والاستمتاع بها ستقف حجر عثرة في مشوار حياتك ولو في أضيق الحدود، وأنها ستغويك بسلوك طرق جانبية، نهايتها الغرور وتبلّد الشعور، فألقِ بكل القصائد والنصوص وكل ما كتبته، بل وكل ما كتبناه جميعًا، وراء ظهرك».

«لقد أصبت عين الحقيقة في رسالتك. لا يُمكن للعمل الفنيّ أن يُولد من رحم الموهبة وحدها. وهناك هوّة شاسعة تفصل بين الهاوي والفنان الحقيقي. فالهاوي غالبًا ما يكتفي بأول فكرة تطرأ على ذهنه، فتأخذه الرهبة من مواصلة تطويرها وتشذيبها على مستوى اللغة والإيقاع الشعري. أما الفنان الحقيقي فيجد سعادته القصوى في الوصول بعمله الفني إلى درجة الكمال ما وسعه، مهما تجشّم من عناء، ومهما نقّح وصحّح وعدّل».

تحياتي القلبية

المخلص: هيرمان هسّه



